الأمير شكيب أرسلان

النهضة العربية

في العصر الحاضر



النهضة العربية
في العصر الحاضر

الأمير شكيب أرسلان / النهضة العربية في العصر الحاضر
قدّم له:
أ. د. محمّد شيّا
إشراف وتحرير:
د. سوسن النجّار نصر

الدار التقدّمية
المختارة - الشوف - لبنان
هاتف: ٩٦١-٥/٣١٠٥٥٥ - ٩٦١-٥/٣١١٥٥٥

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

الأمير شكيب أرسلان

النهضة العربية
في العصر الحاضر

قدّم له

أ. د. محمّد شيّا

إشراف وتحرير

د. سوسن النجّار نصر

كلمة لا بدّ منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه إلى الأساتذة: المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري، والمحامي الأستاذ توما عريضه، الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم، لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، طيّ النسيان والضياع.

فلهم دائم العرفان لِما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع هذا التراث ونقله.

الدار التقدّمية

مقدّمة الناشر

تتابع الدار التقدّمية مسيرتها في نشر تراث الأمير شكيب أرسلان، متوسِّلة نقل هذا الإرث العظيم مع ما يكتنفه من حسن بلاغة وجمال لغة وأسلوب، وقوّة تأريخ لا يسعنا إلاّ أن نقف أمامها بخشوع، وفخر؛ لأنَّ مَن كان كالأمير شكيب أرسلان، لواءً للإسلام والعروبة، لا مكان له سوى في صفحات المجد الراقي والأمثولة الحسنة المقتداة للأجيال اللاحقة التي تجد في نضاله وتضحياته الجمّة التي قدَّمها، بكلّ امتنان، إلى وطنه وأمّته، نبراسًا يشعّ من الماضي السحيق ليضيء ليلنا الحالي ... والمنتظر ... بشمعة نبل وعطاء ... وتفانٍ.

مؤلَّفنا اليوم هو الرابع، في مسيرة نشر التراث الكامل؛ وهو إذ يسلك طريقًا نحو تحديد معالم الحضارة العربية ومقارنتها مع الغرب، في زمن ارتقت فيه العلوم وتقدَّمت من خلاله مناهل المعرفة، ليطرح إمكانات أمّة شاملة على ميزان النجاح أو الفشل.

نصوص تلقي الضوء على تطوّر الحياة والحضارة عند العرب، يستعرض من خلالها، أمير البيان، نقاط الضعف والقوّة، ليكون بالتالي، ليس مجرَّد سارد، بل ناقد ونافذ في الرؤية التطوّرية التي سار وفقها عالمنا العربي، ليبلغ شأوًا يُنظر إليه بعين الاعتبار والمراقبة ... وأحيانًا العجب والإكبار.

مؤلَّف "النهضة العربية في العصر الحاضر" ليس مجرَّد بحث، بل هو مدماك أساس لما سيتبع من أحداث سجَّلتها ذاكرة الأمير الكبير، ومرَّ بها العالم، لتتحدّد بها معالم ما نعيشه اليوم على ظهر هذه البسيطة عمومًا، وفي عالمنا العربي خصوصًا، ولنتبيَّن مكانتنا ... وموقعنا ... على هذه الخارطة الإنسانية والحضارية الشاملة.

ولسائلنا في أهميَّة المؤلَّف وخاصيّته، نقول مع الشاعر:

تلك آثارنا تدلّ علينا فاسألوا بعدنا عن الآثار

الدار التقدّمية

في، ٢٥ تموز ٢٠٠٨

النهضة العربية في العصر الحاضر

تقديم للأستاذ الدكتور محمد شيّا*

ينقل الأستاذ أحمد الشرباصي في مؤلَّفه «**شكيب أرسلان/داعية العروبة والإسلام**»، الصادر سنة ١٩٦٣ عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي في مصر، عن أديب مقدسي، كتب في مجلَّة «الشورى»، في عدد ٦ آب سنة ١٩٢٦، فقال:

«[كتب طه حسين] أنَّ من الكتّاب مَنْ إذا كتب فكأنه يغترف من بحر، ومنهم مَنْ إذا كتب فكأنه يقدّ من صخر. أمَّا أنا فإنِّي أعتقد أنه إذا لم يكن في الأمّة العربية من هذا النوع الذي يغترف من البحر إلاّ اثنان فلا بدّ أن يكون أحدهما، بل أوّلهما الأمير شكيب أرسلان، بل إنِّي أعتقد أنَّ كلمة اغتراف قليلة عليه؛ أيكون اغترافًا من البحر ما نراه كلّ يوم من آثاره؟ كلاّ، ليس هذا اغترافًا، ولكنَّه تدفُّق! ... ومن الأدباء من يسبق الحوادث، ومنهم من يعيش فيها، ومنهم من يجيء بعدها، وشكيب يجمع بين الأحوال الثلاث». (ص ص.٢٩٧ ـ ٢٩٨)

هذا نزر يسير ممَّا قاله في الأمير شكيب أرسلان أدباء معاصرون له، ناهيك عمَّا قيل فيه بُعَيد وفاته سنة ١٩٤٦. لكنَّنا اخترنا النصّ أعلاه، ومن بين نصوص مماثلة كثيرة، لالتقاط صاحبه، وبحقّ، ميزتَين بارزتَين متلازمَتين في كتابات شكيب، وفي شخصيّته قبل كتاباته، وأُولاهما أنه يغرف من بحر، بل قُلْ هو دفق كالنهر أو البحر، أمَّا الثانية، فهي التزامه قضايا أمَّته العربية وحدبه على مصالحها، وبخاصَّة ما تعلَّق منها بنهضتها ومستقبلها.

---

(١) صاحب هذه المقدّمة هو مؤلّف كتاب «**شكيب أرسلان/ مقدّمات الفكر السياسي**»، الذي صدر سنة ١٩٨٣ عن معهد الإنماء العربي في بيروت (وفي طبعات ثلاث لاحقة).

هاتان الميزتان تختصران في الواقع كامل مشروع الأمير شكيب أرسلان السياسي والفكري والحضاري، بل وحياته التي تماهت مع مشروعه حتّى الثمالة وإلى اليوم الأخير، بل النفَس الأخير فيها. أَلَم تكن عبارة «أوصيكم بفلسطين» آخر ما تلفَّظ به قبل أن يُسلم الروح في التاسع من كانون الأوّل سنة ١٩٤٦؟

هذا الكلام هو أفضل ما يُدخِلنا، ربَّما، إلى فضاء كتاب «النهضة العربية في العصر الحاضر» الذي التزمت الدار التقدّمية إعادة نشره في سلسلة أعمال الأمير شكيب الكثيرة والمتميّزة.

-٢-

وبعد، ماذا في الكتاب؟ وما الذي يجعل أطروحات الكتاب، ناهيك عن مادته، جزءًا حيويًّا من كلّ تأريخ علمي/ ثقافي لمرحلة بدايات التململ والنهوض في جسد الأمّة العربية، وفي وعيها، المرحلة التي عاصرها شكيب، وعاينها من قرب، واشترك بفاعليّة في الكثير من أحداثها ومعطياتها؟

الكتاب، من حيث التعريف، هو النصّ الأصلي الكامل لمحاضرة الأمير شكيب التي ألقاها سنة ١٩٣٧ في «المجمع العلمي العربي» بدمشق.

وللتاريخ أعلاه أكثر من معنًى وإشارة لافتة؛ فالأمير المجاهد كان قد اختار النفي الطوعي بُعَيد دخول الفرنسيين إلى لبنان وسوريا سنة ١٩١٨. كان الدخول العسكري ذاك هزيمة، بل نهاية لأحلام شكيب بجامعة إسلامية سياسية كبرى تستند إلى التآخي التركي- العربي، بالإضافة إلى الشعوب والأعراق الأخرى التي شكَّلت يومًا ما، وبنجاح، الخلافة الإسلامية.

اختار شكيب النفي إذًا، وقبل أن يجبره على ذلك المستعمِر الوافد، وغادر كما هو معروف موطنه لبنان إلى أضنة (في تركيا) أوّلاً، ومن ثمَّة إلى برلين مقيمًا فيها

حتَّى سنة ١٩٢٥، ومن بعدها إلى جنيف على وقع تزايد قوّة حركات الرفض العربي المشرقي والمغاربي للانتداب الفرنسي والإنجليزي، أو الاحتلال المقنَّن، وحاجة تلك الحركات الاستقلالية إلى من يحمل قضيَّتها ويدافع عنها باقتدار ونزاهة لدى عصبة الأمم في جنيف. كان لدى شكيب في جنيف أربعون توكيل خطّي من حركات عربية استقلالية لتمثيلها لدى دوائر عصبة الأمم وسواها. أمَّا الاقتدار والنزاهة اللذين تميّز بهما تمثيل شكيب للحركات الاستقلالية العربية في الفترة تلك، فحدِّث ولا حَرَج. وتختصر [ذلك] شهادة الملك عبدالله، ملك الأردن، في الأمير شكيب في حفل تأبينه في فبراير سنة ١٩٤٧ في يافا، والتي يوردها الأستاذ محمَّد علي الطاهر في كتابه "ذكرى الأمير شكيب أرسلان". يقول الملك عبدالله في شهادته:

"كان المرحوم في الحقّ له القدم الرفيع في الخطابة والبيان مع شاعريّته العميقة، وكان لا يعمل كرجال العرب في ه .ا العصر إلى المناصب والوظائف والحرص عليها، وأثره في حاضر العالم الإسلاه ي يجعل شكيبًا فوق كلّ فوق".

(محمَّد علي الطاهر، ذكرى الأمير شكيب أرسلان، ص. ١٠٤)

لم يَعُد الأمير شكيب أرسلان من منفاه الطوعي إلى وطنه إلاّ سنة ١٩٣٧. وكان ذلك بُعَيد توقيع فرنسا والكتلة الوطنية في سوريا، أواخر سنة ١٩٣٦، اتّفاقية تَعِد بمنح الاستقلال السياسي لسوريا. رحَّب شكيب بما تحقّق من وعود رغم عدم وفائها بمطلب الاستقلال التامّ والناجز. وتعبيرًا عن ترحيبه ذاك قَبِل شكيب تكريم الحكومة السورية له باختياره رئيسًا للمجمع العلمي بدمشق. وكانت عودة شكيب إلى سوريا بعد حوالي عشرين عامًا في منفاه الطوعي، وسط استقبال وترحيب رسمي وشعبي بالغَين. ولكنَّ الوعد بالاستقلال الذي وقَّعت عليه حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا سنة ١٩٣٦ عادت لتنكث به بعد حوالي سنة من إبرامه، فاستقال شكيب من رئاسة المجمع العلمي في دمشق وعاد إلى مناصبة المستعمِر الفرنسي حربًا

دائمة، في لبنان وسوريا، كما في بلدان شمال أفريقيا ـ والتي تتذكّر باستمرار فضل شكيب في توحيد الأصوات الوطنية المناهضة للمُحتلّ الفرنسي، وفضله كذلك في تهذيب خطاب هذه الأصوات وتطعيمه بالنكهة العروبية بعدما كان من قبل، إمّا محليًا جدًّا، أو إسلاميًّا فحسب.

في الفترة الوردية القصيرة تلك عمرت أفئدة الوطنيين العرب بآمال الاستقلال السياسي الوشيك، وساد جوٌّ من التفاؤل المتصاعد بقدرة الشعوب العربية على إدارة شؤونهم بأنفسهم، كما كلّ أمم الأرض المتحضِّرة والمتقدِّمة. كانت عودة شكيب القصيرة إلى سوريا سنة ١٩٣٧ بدعوة من الحكومة السورية، كما من هيئات علمية وسياسية عدّة، ألقى فيها غير محاضرة، في دمشق وحلب، مسهمًا في الجوّ الاستقلالي المُستجدّ، ومبيِّنًا شروط التقدُّم الحضاري الصحيح، وثقته بقدرة العرب على الإيفاء بالشروط والالتزامات الحضارية تلك. والمحاضرة المطوَّلة التي تعيد **الدار التقدّمية** نشرها بين دفَّتي هذا الكتاب هي إحدى محاضرات شكيب في الفترة تلك، ولعلَّها الأبرز لوقوعها في المجمع العلمي العربي في دمشق، وللمادّة التاريخية والعلمية الغزيرة التي تضمَّنتها، انتهاءً بالإشكالات الفكرية التي حملتها، والتي ما زالت إشكالات راهنة حتَّى يومنا هذا، وهو ما سنعرض له بعد قليل.

ـ٣ـ

على مستوى العناوين والموضوعات، يوثِّق الأمير شكيب في محاضرته للنهضة العلمية والثقافية والحضارية الجارية، أو التي تحقَّقت في «العالم العربي» في مشرقه ومغربه، بين مطلع القرن العشرين والثلاثينيّات منه، أي لعقود ثلاثة أو أربعة. والنهضة العلمية والثقافية والحضارية، موضوع المحاضرة، تتناول أبوابًا عدّة، أهمّها: الصحافة، الحركة العلمية، المدارس، المجمع العلمي، النهضة العلمية في بلاد الشام ومصر والمملكة العربية السعودية وبلاد اليمن والمغرب العربي، في الإصلاح الديني، وسواها من العناوين.

في المادّة التي ينسج الأمير شكيب من خيوطها متن محاضرته، ويملأ بها فقرات موضوعاته، سيلاحظ القارئ دونما ريب بحرًا من المعطيات والوقائع كان يغرف منه شكيب، وفي كلّ موضوع، بتوسُّع وترسُّل وإفاضة، وإلى درجة عالية من الشمول والإحاطة. وسيجد المُتابع أو المَعني بشؤون النهضة العربية في الثلث الأوّل من القرن العشرين دفقًا من المعلومات والمعطيات والأرقام والأسماء والعناوين الموثَّقة في الأبواب أعلاه، وعلى نحو لن يجده مجتمِعًا في عملٍ واحد أو محاضرةٍ واحدة. وتصل متابعة شكيب اللصيقة لموضوعاته حدّ تسجيل عدد الصحف والمجلاَّت التي تصدر في بيروت، أو عدد النسخ التي تطبعها جريدة "الأهرام" في مصر، أو عدد الجمعيّات العلمية في سوريا، أو عدد المدارس في اليمن، وما شابه. ولا حاجة للإشارة، كما أعتقد، أنَّ هذا الحدّ من التوثيق لا يأتي ارتجالاً أو عفو الخاطر، بل هو نتاج تنقيب وبحث ومعاصرة، بل ومتابعة يومية لآخر ما يعني العنوان موضوع البحث. ولن يحارَ قارئ شكيب في تفسير إحاطته القريبة اللصيقة في كلّ ما كتب حين يعرف أنَّ الأمير شكيب، وكما يروي معاصروه وعارفوه، كان يصرف يوميًّا أكثر من عشر ساعات في المطالعة والتقميش وتدبيج أبحاثه ومقالاته. ويروي رفيق لشكيب في رحلة له أنَّ ما ودّع شكيبًا يومًا في المساء، أو قَدِم عليه في الصباح، إلاّ وكان يقرأ أو يكتب. ومن عجيب عاداته، ولا زلنا في السياق نفسه، أنه ما استلم رسالة من أمرئ، أيًّا كان مقامه، إلاّ وردَّ عليها برسالة مكتوبة بخطّ يده، أو بخطّ يد كاتبه بعدما تقدَّم به العمر. ويروي باحث محقِّق في أثار شكيب (جبرايل جبّور) أنه لو جُمِعت رسائل شكيب إلى مراسليه ومحبِّيه وعارفيه لبلغَتْ طنًّا من الورق!

هذا على مستوى الكمّ، أي مادّة البحث وتعدُّد مصادرها وشمولها، لكنَّ القارئ سيلحظ أيضًا أمرًا إضافيًّا يتعلَّق تحديدًا بمستوى المنهج العلمي الذي يظهره شكيب في طريقة معالجته لموضوعاته. فلغة المحاضرة، ورغم درجة الالتزام العالي التي تُميِّز كتابات شكيب باستمرار، هي لغة علمية، أي لغة موضوعية، مدقّقة،

رصينة، هادئة، لغة الباحث العلمي المتمرِّس، ولغة المؤرِّخ الثقة، الذي لا يذكر رقمًا أو معطًى إلاّ ويردُّه إلى مصدر أو مرجع، أو أحيانًا إلى معرفة شخصيّة وثيقة. ولا يتردّد شكيب الباحث العلمي المدقِّق، وفي دقّة، بل تواضع العلماء البحّاثة الحقيقيين، أن يتحفَّظ في غير مكان من محاضرته، فيضيف إلى المعلومات أو الأرقام التي يوردها عبارة: "في حدود ما أعرف"، أو "في حدود ما بلغني"، وما شابه من استدراكات تنتزع من دون شكّ احترام القارئ، وثقته بالتالي بمعطيات البحث وبنتائجه ـ أمران باتا مع الأسف مفقودَين منذ فترة من الزمن في الكثير من المقالات وفي ما بات يُزعم أنه بحوث، بينما هي تفتقد في الواقع، وبحجّة "الالتزام"، إلى شرطَي الثقة والصدق، فتنتهي مجرَّد "نشرات" أيديولوجية تُسقط منذ البدء نتائجها وخلاصاتها، ومن دون حاجة إلى دليل أو برهان موضوعي، ناهيك بشرطَي التحفُّظ والنقد.

لم يكن إذًا من باب التكريم فقط اختيار شكيب رئيسًا للمجمع العلمي العربي بدمشق في فترة المهادنة القصيرة التي عاد فيها إلى دمشق، بل هو شكيب الباحث والمؤرِّخ الموسوعي، العلمي، المدقِّق، والموثِّق، والذي صرف عمره كلّه في محراب العلم (ومكتباته)، تمامًا كما كان في ساحات الجهاد والعمل المضني في سبيل قضايا وطنه، والقضايا العربية والإسلامية بوجه عامّ.

ـ٤ـ

أمَّا آخر ما نتوقَّف عنده في المحاضرة/الكتاب هذا، وإلى المعلومات والمعطيات والمصادر التي نوَّهنا بها، فهي الأفكار والإشكالات والاستنتاجات التي يخلص إليها شكيب أو يبثّها في ثنايا محاضرته. هذه الأفكار والاستنتاجات هي، إمَّا عبرٌ ثقافية من مستوى تاريخي وعلمي رفيع، أو إشكالات لا زالت إلى اليوم تتردَّد في كتابات كتّاب النهضة العربية الحديثة ومؤرِّخيها. وسنمرّ لمامًا ببعض أهمّ تلك الأفكار والاستنتاجات التي عرض لها شكيب أو انتهى إليها.

أولى أفكار المحاضرة، ولعلّها أولى الحقائق العامّة التي يرسيها شكيب، نجدها في قوله الواضح الدقيق:

«لا حاجة بنا إلى القول بأنَّ أجلى مجالي هذه النهضة كان في العلم والتعليم. وعندي أنه لا نهضة للأمم سوى النهضة العلمية، فإذا وجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية ...إلخ، آخذًا بعضها برقاب بعض. فإذا قلنا إنَّ الشرق الأدنى نهض نهضة علمية، كفينا تعداد سائر مظاهر نهوضه ومعارج رقيّه، لأنَّ العلم وحده هو المفتاح وبه وحده الدخول إلى داخل البناء، وكلّ نهضة لا يكون ظهرها العلم، فما هي إلاّ ساعة وتضمحلّ!» (ص. ١٠)

هذه المقدِّمة العامّة، بل الحقيقة العامّة الأولى التي يرسيها شكيب في مطلع محاضرته، هي على قدرٍ عالٍ من الأهمّية والتميُّز والراهنية، وتستحقّ بالتالي أن نتوقَّف حيالها بعض الشيء محلِّلين مضمونها ومعناها.

لو اكتفى شكيب في النصّ أعلاه بالقول إنَّ العلم والتعليم هما في أساس نهضة الأمم، لكان أمرًا مهمًّا بالتأكيد ولكنَّه يبقى مع ذلك قول مكرور، وما كان شكيب ليأتي فيه بجديد يُذكر. لكنَّ شكيب يمضي إلى ما هو أبعد بكثير من ظاهر النصّ وليرسم معادلة جديدة، بل قاعدة جديدة في ربط العلم والتعليم بالنهضة العامّة للأمم.

يطوِّر شكيب في النصّ أعلاه العلاقة بين العلم والتعليم من جهة، ونهضة الأمم من جهة ثانية، في ثلاث مستويات تتدرَّج صعودًا كما يلي: الأوّل وصفيّ، وهو أنَّ العلم والتعليم هما أجلى مجالي النهوض في الأمم. والثاني سببيّ، وفحواه أنَّ النهضة في العلم والتعليم سبب لسائر النهضات الأخرى، السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية وسواها. والثالث معرفيّ / منطقيّ، ومؤدّاه أنَّ حضور النهضة العلمية كافٍ وحده ليؤشِّر إلى سائر النهضات الأخرى (إذا جاز لنا التعبير

هكذا)، بل وليختصر مظاهر النهضة كافّة، وأنَّ هذه النهضات(السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية ...إلخ) هي بالتالي، وباختصار، نهضات لاحقة للنهضة العلمية بالمعنى الدقيق للكلمة.

لكنَّ الأمير شكيب لا يكتفي في العلاقة التي يرسيها بين النهضة العلمية ومظاهر النهضة الأخرى بالمستويات الثلاث التي رأيناها حتَّى الآن، بل هو يدفع بمنطقه إلى الدرجة القصوى، وليرسي من ثمَّة ما يكاد يكون قانونًا تاريخيًا أو حضاريًّا لن تجد صياغة أكثر بلاغة من صياغة شكيب نفسه في النصّ أعلاه حيث يقول: «**... وكلّ نهضة لا يكون ظهرها العلم، فما هي إلاّ ساعة وتضمحلّ**».

هو قانون تاريخي يرسيه شكيب لا يقلّ قوّةً ومنطقًا وإقناعًا عن القوانين التاريخية الأخرى المعروفة في أعمال مؤرِّخي الحضارات الكبار من أمثال ابن خلدون، وتايلور، وتوينبي، وسواهم. لكنَّ أهمّية القانون هذا الذي يرسيه شكيب تزداد في مكاننا وزماننا نحن على وجه الخصوص، ولأسباب عدّة أهمّها اثنان:

الأوّل يجب أن يراه تحديدًا أصحاب الدعوات التبسيطية التي ذهب أصحابها إلى إعلان إمكانية النهوض بالأمّة من جديد على قاعدة التراث، أو العصبية الدينية، أو العرقية، وما شابه من دعوات قصّرت عن إدراك السرّ الداخلي العميق في كلّ نهضة حدثت عبر التاريخ، وهو استنادها الحتمي إلى نهضة علمية مناسبة وكافية لزمن النهضة تلك ومكانها. حبَّذا لو أدرك المتحمِّسون المتسرِّعون جوهريّة التعليم والعلم والنهضة العلمية في إسّ كلّ نهضة ونهوض على الإطلاق. ولا حاجة للقول إنَّ الجامدين الغلاة الذين ما فتئوا إلى اليوم حذرين، كي لا نقول معادين للمدارس والتعليم والعلم ونتاجاته، هم يعيشون بالتأكيد خارج المجرى الحقيقي للحضارة والحياة، ومواقفهم مؤذية لشعوبهم ولقضاياهم (إذا كان لهم قضايا حقًّا) قبل أن تكون مؤذية لخصومهم وللآخر عمومًا. هذا الدرس من شكيب هو للمتعصِّبين الجامدين في كلّ زمن، في زمن شكيب نفسه كما في زمننا هذا.

أمّا وجه الأهمّية **الثاني**، والخاصّ بشكيب، فهو كذلك لافت ويجب التوقُّف لهنيهة عنده. فشكيب هو "داعية العروبة والإسلام"، وهو بمعنى قريب داعية "العروة الوثقى" و"الجامعة الإسلامية"، إلى ما هنالك من اتّجاهات تُنسَب إلى شكيب وتجعله بحقّ وعلى وجه الدقّة في الرعيل الإسلامي الإصلاحي على الخطى التي تركها المُصلح الإسلامي الكبير جمال الدين الأفغاني، وإلى جانب الإمام محمَّد عبده، والمفكِّر الإسلامي الكبير رشيد رضا، وغيرهم من الرعيل الإسلامي الإصلاحي منذ أواخر القرن التاسع عشر وإلى اليوم. شكيب المفكِّر والمجاهد الإسلامي بامتياز، والداعية لتجديد الحضارة الإسلامية، بل الخلافة الإسلامية لفترة ما، شكيب هذا يدعو بالقول الصراح أو بالفم الملآن ـ كما يقال ـ إلى أخذ التعليم والعلم والنهضة العلمية، وليس أيّ شيء آخر، قاعدة صلبة للنهضة العربية أو الإسلامية المنشودة. هو لا يكتفي بذلك، بل يذهب إلى حدّ القول، بل التحذير الصريح من أنَّ "**... كلّ نهضة لا يكون ظهرها العلم، فما هي إلاّ ساعة وتضمحلّ!**". هل من وضوح أكثر ممّا تُفصح عنه عبارة شكيب؟ هي أكثر من عبارة. هو في الحقيقة درس تاريخي/حضاري للإصلاحيين عمومًا، لكنَّه موجَّه على وجه الخصوص للإصلاحيين الذي فاتهم أو اِلْتَبَسَ عليهم دور النهضة العلمية المحوري، والذي لا بديل له في كلّ مشروع نهوض، لدى كلّ أمّة، وفي كلّ زمن.

وللذين ما فتئوا يجادلون في الحقيقة التاريخية والحضارية تلك يقدِّم شكيب نهضة اليابان الحديثة حالة ناجحة تستحقّ الدرس والاتّعاظ بأهمّ معالمها، وبسبب اعتمادها أوّلاً وأخيرًا على التعليم والعلم والنهضة العلمية والصناعية.

وإلى الإشكاليّة الأولى هذه، نتوقف من بين أفكار المحاضرة/الكتاب الكثيرة عند فكرة ثانية هي أيضًا فكرة إشكاليّة بامتياز في زمن شكيب كما في زمننا الحالي، وتتعلَّق تحديدًا بالمسألة الثقافية التي يطرحها التقدُّم الحاصل للغرب قياسًا بالجمود الذي أصاب العرب والمسلمين. والإشكاليّة الفرعيّة التي تلحق مباشرة هي السؤال

الذي ما انفكّ يتردَّد على أقلام كلّ الكتّاب تقريبًا، وفحواه: **كيف يكون النهوض والتقدُّم؟ ما سُبُله؟ وكيف ننهض ونتقدّم ونحافظ على هويّتنا في آنٍ معًا؟**

لكنَّ أهمّية نصّ شكيب لا تقوم في تعبيره الدقيق والراهن والبليغ عن الإشكاليّة الثقافية وأسئلتها المقلقة فقط، وإنَّما كذلك في نوع الخيارات أو الخلاصات التي ينتهي إليها شكيب، والتي لم تزل إلى اليوم الممرّ الآمن، والوحيد ربَّما، بين جمود الجامدين الذين يرفضون مغادرة الماضي، وتطرُّف الجاحدين المنكرين للماضي برمّته، وفق تعبيره في كتابه «لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم؟»، وهو في الأصل جواب مطوَّل من الأمير شكيب على استفسار وَرَدَه من أهل «جاوة» بأندونيسيا حول أسباب التأخُّر الراهن للمسلمين، وسُبل تقدُّمهم من جديد.

يعرض شكيب، في المحاضرة التي نحن بصددها الآن، للأسئلة المقلقة التي ما انفكّ العرب يواجهونها وهم يخرجون من حال الجمود والتأخُّر إلى حال النهوض واللحاق بالأمم المتقدِّمة، فيقول:

«بقي علينا أن ننظر كيف يكون اتّجاه الأمّة العربية في المستقبل من جهة الثقافة! أَتأخذ بالثقافة الغربية ولوازمها ومتمِّماتها إلى النهاية، أم تبقى معتصمة بثقافتها الشرقية الأصيلة، لا تبغي بها بدلاً ولا عنها حولاً؟ أم تأخذ من الثقافتَين معًا وتجعل من ذلك ثقافة خاصّة لا شرقية ولا غربية؟» (ص. ٣٩).

تلك هي صياغة شكيب للإشكالية الثقافية المرتبطة بسؤال التقدُّم عند العرب، وانعكاس ذلك في أسئلة أخرى مقلقة تطال الهويّة والشخصيّة العربية والعلاقة بالماضي، فيما نحن نلج فضاء المستقبل. أمَّا الخيار الثقافي الذي يخلص إليه شكيب فهو خيار الاعتدال والوسطيّة التي تفتح الباب مشرَّعًا لكلّ تقدُم علمي ومادّي، ومن دون التنكُّر لهويّتنا ولتراثنا. يخلص شكيب من مناقشة الإشكاليّة الثقافية التي طرحها، إلى بيان خيارات المعاصرة لديه، وبوضوح كلّي، فيقول:

«أظنُّ أنَّ ثقافة العرب المستقبلة ستكون ثقافة عصرية، آخذة من التجدُّد بأوفى نصيب، لكن مع الاحتفاظ التامّ بالطابع العربي. وهذا أشبه بما سبق للثقافة العربية في زمن بني العبَّاس وفي زمن بني أميّة بالأندلس، حينما نقَلَ العرب حكمة اليونان إلى لغتهم واطَّلعوا على علوم فارس والهند، فجعلوا من هذه الثقافات الثلاث، ومن الثقافة العربية الأصليّة، ثقافة جديدة عالية كانت أرقى ثقافة في القرون الوسطى... هكذا ستكون ثقافة العرب بعد اليوم، لن تكون جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدثين وجوب التعديل فيه والإضافة إليه، ولن تكون منسلخة من القديم، جاحدة في التبرّؤ منه... ولكنَّها تكون ثقافة جامعة بين القديم والجديد، مختارة من كلّ شيء أحسنه، مع بقاء الصبغة العربية التامّة غير المفارقة للعرب، وذلك على النحو الذي نحاه اليابانيون الذين اقتبسوا جميع علوم الأوروبيين ولم يغِبْ عنهم منها شيء، ولا فاتهم من صناعات أوروبا دقيق ولا جليل، ولبثوا مع ذلك يابانيين أصلاء في لغتهم، وأدبهم، وطربهم، وطعامهم، وشرابهم، وجميع مناحي حياتهم. وحسب العرب قدوة للاقتداء ومثالاً للاحتذاء، هذه الأمّة اليابانية العظيمة التي لا يوجد أشدّ منها رجوعًا إلى قديم، ولا أخذًا منها بحديث. والآمال معقودة بأنه ستكون في الشرق الأدنى نهضة عربية علمية تضاهي النهضة العلمية التي رأيناها في الشرق الأقصى». (ص ص. ٣٩ ـ ٤٠)

تلك هي إشكاليّة أخرى، مقلقة وملحَّة، يتصدّى لها شكيب في هذا الكتاب تصدّي العالِم العارف، المدقّق، الناقد، من جهة، وتصدّي الملتزم قضايا أمّته، من جهة ثانية، والمتفائل بقدرتها على الفوز في المعركة الحضارية الجارية. ولا حاجة بالتأكيد إلى التذكير أنَّ راهنيّة الإشكاليّة التي يعرض لها شكيب لم تزَلْ بعد سبعين سنة من النصّ أعلاه بالقوّة نفسها وبالإلحاح عينه. نصّ شكيب لم يزَلْ معاصرًا إذًا، في أسئلته المقلقة كما في الخيارات الثقافية التي يدفع شكيب باتّجاهها. ومع ذلك فهو ليس نصًّا مقفلاً، بل هو، وكما في كلّ إشكاليّة، مفتوح على خيارات متنوِّعة ولكن مع احتساب النتائج المترتِّبة على كلّ اختيار.

ذلك هو وجه الأهمّية البادي لأكثر من سبب في النصّ الذي نعرض له. وعندي أنَّ هذه الأهمّية باقية ما بقيت شروط الحاضر في يومنا غير مختلفة كثيرًا عن شروط عصر شكيب، ممّا يُبقي سؤال التقدُّم/ التأخُّر، الذي طرحه شكيب في محاضرته، سؤالاً راهنيًّا ما زال مطروحًا بقوّة علينا هذه الأيام ـ وكأنَّ الزمن لم يتقدَّم عندنا كثيرًا بعد شكيب!

ـ٥ـ

وبعد، فهذه مجرَّد إشارات أو ملامح، لا أكثر، نستلّها من متن محاضرة شكيب المتميِّزة "**النهضة العربية في العصر الحالي**"، نشير من خلالها إلى غنى النصّ، بل اكتنازه بالأفكار والأسئلة والإشكاليّات، والتي هي برسم كلّ معنيّ ببيان مظاهر القصور والنهوض في أمّتنا، من جهة، وبسُبُل التقدُّم وشروطه وآليّاته من جهة ثانية. وفي الحالين، كان شكيب عالِمًا محقِّقًا مقتدرًا، وبمقدار ما كان في الآن نفسه مجاهدًا مخلصًا.

أمر آخر، بل أخير نشير إليه في المحاضرة/الكتاب، وهو أنه بالإضافة إلى المادّة العلمية الوفيرة، والمنهج الموضوعي الأمين، والإشكاليّات الثاقبة المقلقة، فإنَّك لتجد أمرًا آخر إضافيًّا لا يتوفَّر إلاّ في كتابات الأمير شكيب ـ ورهط من معاصريه الذين رحلوا جميعًا. الأمر الإضافي الخاصّ ذاك هو: اشتراك شكيب الشخصي في الكثير الكثير من أحداث عصره العاصف، وتحوُّله من ثمَّة، في كلّ الأحوال، وفي كلّ الوقائع المهمّة، إلى شاهد عيان في كلّ مسألة معاصرة له. وعليه، فليس بالأمر الثانوي، أو الذي نمرّ به عرَضًا، إلماح شكيب في محاضرته إلى علاقته، بل التصاقه بتحوُّلات عصره، حيث يقول في تأريخه للنهضة العربية الحديثة:

"... على أنَّ النهضة الشرقية العربية، وإن كان قد ذرّ قرنها منذ قرن وأكثر، لم تسِر هذا السير الحثيث **إلاّ في الخمسين سنة الأخيرة التي شهدها كاتب هذه الأحرف**

بجميع صفحاتها... فلي الحقّ بأن أدّعي معرفة تاريخ هذه النهضة، وما دخلت فيه من التطوّرات، على قدر ما يستطيع خادمٌ أمينٌ للعلم زاول عمله في مكافحة الجهل طوال خمسين سنة دون أن يتخلّف يومًا واحدًا!». (ص. ١٢)

هذا النصّ، كغيره من نصوص شكيب، نصّ يختزل أفكارًا متميِّزةً عدّة يستطيع القارئ الناقد أن يتوقّف عندها بالتفصيل لأهمّيتها في أكثر من جانب، وفي غير اتّجاه. لكنّنا لن نتوقّف، ونحن نختتم هذا التقديم، إلاّ عند إشارة شكيب إلى خمسين سنة أو أكثر من عمر الحراك الشرقي العربي أتيح لشكيب أن يعاين «صفحاته» صفحةً صفحة؛ خمسون سنة أو أكثر صرفها شكيب في خدمة العلم وفي مكافحة الجهل، ومن «دون أن يتخلّف يومًا واحدًا!».

هوذا شكيب العالِمُ الموسوعي المدقِّق، وفي كلّ باب، والمجاهِدُ الصادق طوال عمره في خدمة قضايا أمّته وبغير حدّ!

حسنًا فعلَتِ **الدار التقدّمية** بإعادة نشر أعمال الأمير شكيب أرسلان، وفي اللحظة التي نحتاج فيها كعرب، في المشرق والمغرب، إلى علمٍ، وإلى نهضةٍ علميةٍ شاملة من النوع الذي حثّ عليه شكيب، وإلى عملٍ مخلصٍ صادق، ومن مثل جهاد شكيب وإخلاصه وترفُّعه.

رحم اللّه شكيبًا، الذي كان بحقّ أمّةً في رَجُل، ومرّةً ثانية شكرًا من قادري شكيب ومريديه **للدار التقدّمية** لالتفاتتها الصائبة ولتضحياتها.

صوفر، (بلدة شكيب أرسلان الثانية قبل سنوات النفي)
في، ١٢ آب ٢٠٠٨



الأمير شكيب أرسلان ـ الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد[1]

لقد تكلّمنا منذ أيام في النادي العربي عن نهضة العرب السياسية وسيرهم في طريق الاتّحاد في ما بينهم، اقتداءً بغيرهم من الأمم اللائي كنّ مفكّكات مبعثرات، فما زلن يسعين في الانضمام إلى أن أصبحن كتلة واحدة. ونحن نتكلّم الآن عن نهضة العرب العلميّة التي هي في الواقع أساس النهضة السياسية، مختارين لهذه المحاضرة مكان المجمع العلمي الذي هو المنبر الطبيعي للمباحث العلميّة، كما اخترنا النادي العربي منبرًا للكلام عن الوحدة العربية التي هي من مباحثه. وإنّما كان الفرق بين البحثَين أنّ الواحد منهما سياسيّ صرف لا يجوز الخوض فيه إلاّ بالمقدار الذي تسمح به المصلحة، وأنّ الآخر علميٌّ بحت يقدر أن يستقصي فيه الباحث ما شاء دون أن يتعرّض لمحذور، أو يعرِّض أمّته لضرر. وبهذه المناسبة، أعلن أني آسف، بل جدّ آسف من أن أرى بعض إخواننا معتقدين أنّ الإنسان إذا حَاضَرَ في باب السياسة وجب عليه أن يفرغ جعبته من أولها إلى آخرها، وأن يجهر بكلّ ما يدور في خلده كما لو حاضر في باب العلم، فهذا لا شكّ مذهب من يسمّيه الإفرنج بـ«الولد الهائل»، ومن ليس في الواقع جديرًا بأن يطرق باب السياسة أصلاً، بل بين هذا والسياسة، ما بين المشرق والمغرب، فنحن لا نرضى أن نكون من الأطفال الهائلين، ولا من الذين لا يعرفون إلى أين يذهب الكلم، بل نحن، ولله الحمد، من أمّة اشتُهرت بالمرونة والدهاء وسرعة اللحظ، وقد جاء في أمثالها: اللبيب من الإشارة يفهم، ولقد كان هاديها الأعظم (ﷺ) إذا أراد غزوة ورى بغيرها.

---

(١) نصّ المحاضرة التي ألقاها الأمير شكيب أرسلان في دار المجمع العلمي العربي بدمشق، بتاريخ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٧. وقد تمّ نشرها تباعًا آنذاك عبر صفحات جريدة الجزيرة. (المحقّق)

ومنّا الذي يقول:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقائل هذا البيت هو الذي قال فيه سيِّدنا عمر (رضي الله عنه) إنَّه أشعر العرب لقوله ومن ومن. ثمَّ أبدأ بالكلام عن نهضة العرب العلميّة، فأقول:

منذ عشر سنوات (أي سنة ١٩٢٧)، اقترح عليّ الطيّب الذكر الأستاذ يعقوب صرّوف، صاحب مجلَّة «المقتطف» التي انتهت إليها رئاسة المجلاّت العلميّة، أن أكتب إلى «المقتطف» شيئًا في موضوع النهضة الشرقية في هذه الخمسين سنة الأخيرة، فكتبت يومئذٍ فصلاً ظهر في أجزاء المقتطف من تلك السنة وراق العلاّمة المشار إليه كثيرًا، وقد بدأته بما يلي:

لا حاجة بنا إلى القول بأنَّ أجلى مجالي هذه النهضة كان في العلم والتعليم. وعندي، أنه لا نهضة للأمم سوى النهضة العلميّة، فإذا وجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية ...إلخ، آخذًا بعضها برقاب بعض. فإذا قلنا إنَّ الشرق الأدنى نهض نهضة علميّة، كفينا تعداد سائر مظاهر نهوضه ومعارج رقيّه؛ لأنَّ العلم وحده هو المفتاح وبه وحده الدخول إلى داخل البناء، وكلّ نهضة لا يكون ظهرها العلم، فما هي إلاّ ساعة وتضمحلّ. وقد يقال إنَّ نهضة شرقنا هذه ضئيلة لا تستحقّ أن تُذكر بالقياس إلى معالي الأمم الراقية، وإنَّنا لا نبرح متخلّفين بمساوف شاسعة عن أمد أوربا[1] وأميركا واليابان، فلماذا نشغل أنفسنا بما لا يشغل حيّزًا في التاريخ العام؟ وعلى هذا نجاوب أنه ليس العلم متعلّقًا بالكمال وحده، ولا البحث موقوفًا دائمًا على ما بهر النهى وبلغ سدرة المنتهى، وإنَّما العلم هو ما تناول الدرجات كلّها، الدنيا منها والقصوى، والبحث هو الذي به توزن مقادير الأشياء وتحدّد نسبة بعضها إلى بعض ونسبتها إلى الوقت. ثمَّ إنَّنا

(١) أوروبا.

إذا تحرّينا الحقيقة، وجدنا الشرق العربي قد اجتاز في هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة ما لم يتهيّأ لأوروبا أن تجتازه قبلاً في أطول جدًّا من هذا الردح من الدهر. وذلك أنه من الطبيعي أن يسهل على المتأخِّر ما لا يسهل على المتقدِّم؛ لأنَّ المتقدِّم قد يُضطرُّ أن يمهّد الطريق ويسير، وأمّا المتأخِّر فما عليه إلاّ أن يلحقه ويسير على طريق مذلّل أمامه.



محمّد علي الكبير مؤسّس النهضة

فالنهضة الشرقية العربية ـ نسمّيها بالعربية إخراجًا لما سواها من نهضات الشرق، كنهضة اليابان والصين في الشرق الأقصى، ونهضة فارس والأفغان والهند في الشرق الأوسط، ونهضة الترك في الشرق الأدنى بحذائنا[1] ـ قد بدأت في الواقع منذ أكثر من مائة سنة لعهد محمَّد علي، عزيز مصر، فهو أول من لحظ الخطر الحائق بالشرق من جرّاء جموده على أساليب العمران القديمة، وجعل نصب عينه حديا الغرب في أساليبه الجديدة حتَّى يتأتّى للشرق أن يقاتل الغرب بسلاحه ويدفعه عنه ويستقلّ بنفسه. إذ كانت سنّة الله منذ وجد العمران على سطح هذه الكرة أنه كلّما تقوّى جانب منها سطا على الآخر واجتاحه وضرب عليه الذلّة والمسكنة.

فمحمَّد علي هو المؤسّس الحقيقي لهذه النهضة الشرقية العربية، ليس بوادي النيل فحسب، بل في البلاد التي تجاور هذا الوادي المبارك، وفي مقدّمتها سورية، وأوّل ما استنشق السوريون ريح الحضارة الحديثة إنَّما كان في زمن محمَّد علي، وفي زمن غزاة ولده ابراهيم باشا للشام. ثمَّ انكفأ ابراهيم باشا إلى مصر سنة ١٨٤٠، وبقيت في سورية آثار الانتباه ونزعة التجدّد، وجد السوريّون، لا سيَّما أهل الساحل منهم، ينشدون أسباب المدينة الغربية لما رأوا فيها من القوّة والرفاهية. وأنس المرسلون الأميركيون هذا الاستعداد في أهل سورية، فأسّسوا في بيروت كلّيتهم الشهيرة التي كانت النبراس الأول التي استضاءت به سورية، ولا يزال هذا النبراس يُزهر في آفاق الشرق إلى يومنا هذا. ورأت أمم أخرى (كالفرنسيين والألمان والطليان والروس) أنَّ أرض سورية قابلة جدًّا لبذور المعارف، فبثّوا فيها المدارس والكتاتيب؛ وكلّ ذلك كان يبدأ في بيروت ثغر الشام البسّام. ففي بيروت، والحقّ يقال، ابتزغ

---

(١) في محاذاتنا.

زرع العلم العصري وأخرج شطاه، ثمَّ انبثّ في جميع الشامات، ثمَّ في ما جاورها، واستغلظ واستوى على سوقه يعجب حتَّى الزُّرَّاع الأوربيين أنفسهم. واضطُرَّت الدولة العثمانية أن تفتح المكاتب الرشدية والإعدادية في سورية، وأن تقبل كثيرين من شبّانها في مكاتبها العالية في القسطنطينية، فتخرّج فيها ألوف من الناشئة، منهم من تقلّدوا مناصب ملكية أو عدلية، ومنهم من تعاطوا مهنة المحاماة، ومنهم أطبّاء وصيادلة، ومنهم ضبّاط نبغوا في الفنون العسكرية وامتازوا بين الأقران من ضبّاط العرب في العراق وسورية واليمن، كلّهم ممّن تخرّج في مكتب بانغالدي في الأستانة، وقد يزيدون على ثلاثة آلاف ضابط فيما يقال.

ومع أنَّ النهضة العلميّة في مصر لم يكن الأصل فيها لا الكلّية الأميركية ولا الكلّية اليسوعية في بيروت، ولا مكاتب الدولة في الأستانة، لا يُنكر أنَّ مصر كانت ميدانًا لجياد القرائح السورية، وأنَّ أنبغ الذين تخرّجوا في بيروت إنَّما ظهروا واشتهروا وتعلّقت قناديلهم بمصر، هذا كما أنَّ لمصر على الشام فضل تخريج عدد لا يحصر من أبناء هذه في العلوم اللغوية والشرعية بالجامع الأزهر، وتخريج عدد كبير من أطبّاء سورية بالقصر العيني. فما زال كلٌّ من القطرين المصري والشامي يشدّ الواحد منهما الآخر في كلّ ضرب من ضروب الرقيّ العقلي. وقلّما جدَّ في أحدهما شيء إلاّ سَمِعْتَ رَجْعَ صداه في الآخر. على أنَّ النهضة الشرقية العربية، وإن كان قد ذرّ قرنها منذ قرن فأكثر، لم تسر هذا السير الحثيث إلاّ في الخمسين سنة الأخيرة التي شهدها كاتب هذه الأحرف بجميع صفحاتها. وذلك لأني بدأت بالكتابة في الصحف وبمرافقة الحركة العملية في سيرها منذ ٥٢ سنة متوالية، فلي الحقّ إذًا بأن أدّعي معرفة تاريخ هذه النهضة وما دخلت فيه من التطوّرات، على قدر ما يستطيع خادم أمين للعلم زَاوَلَ عمله في مكافحة الجهل طوال مدّة خمسين سنة دون أن يتخلّف يومًا واحدًا.



الصحافة

لا نزاع في أنَّ الصحافة العربية قد كانت من أقوى عوامل هذه النهضة، بما أثارته من الحركة الفكريّة ونقلت من أخبار الغرب الناهض إلى أهل الشرق النائم، وقد كان بحسب معلوماتي ـ وربَّما أكون مخطئًا في بعضها ـ أوّل جريدة عربية صدرت في الشرق، جريدة «الوقائع» المصرية بعهد محمَّد علي، ولكن بقيت سورية مدّة طويلة لا تصدر فيها جريدة. ويقال إنَّ أوّل جريدة صدرت في بلادنا هي جريدة «حديقة الأخبار»، أنشأها خليل أفندي الخوري، من شعراء لبنان في وقته، وذلك سنة ١٧٦٠، ثمَّ أصدر المعلِّم بطرس البستاني الشهير نشرات وطنية في بيروت لذلك العهد. ولم يلبث أن نشر جريدة أسبوعية بأَسم «الجنّة»، ثمَّ جريدة يوميّة بأَسم «الجنينة»، ثمَّ مجلَّة شهرية بأَسم «الجنان». وقد التزم هذه المادّة في التسمية لمناسبتها مع اسمه «البستاني». وكان اليسوعيّون قد أصدروا في بيروت جريدة بأَسم «البشير» تغلب عليها المباحث الدينية الكاثوليكية. ثمَّ أصدر القسّ لويس الصابونجي جريدة «النحلة». وأصدر غيره جريدة اسمها «النجاح»، وأصدر الأمريكون جريدة اسمها «النشرة الأسبوعية»، ثمَّ تحرّك المسلمون فأصدروا جريدة سمّوها «ثمرات الفنون»، وكانت تصدر بإدارة الشيخ عبد القادر القبّاني، وقد تولّى تحريرها في البداية العلاّمة الشيخ يوسف الأسير، ثمَّ خلفه عليها العلاّمة الشيخ ابراهيم الأحدب الطرابلسي، وهذا كلّه كان بين ١٨٦٠ و١٨٨٠، أي في مدّة عشرين سنة، فوُجدت في بيروت في ذلك العهد عدّة مطابع، وصارت تطبع الكتب العربية بعد أن كان طبع الكتب العربية منحصرًا في مطبعة «بولاق» المصرية، وغيرها من مطابع مصر، وكانت قد صدرت في الأستانة، في أثناء حرب «القريم» سنة ١٨٥٥، جريدة «مرآة الأحوال» وذلك بأمر الدولة، وتولّى تحريرها رزق الله

حسّون، الكاتب الشهير، وقد وقعتُ إلى عدّة نسخ كانت باقية عندنا من تلك الجريدة، [و] فيها أخبار حرب القريم وغيرها من الأخبار؛ وممّا أتذكّره أنه كان عند ذكر خديوي مصر يلقّبه بسعادة عزيز مصر، وأظنّ أنّ جريدة "مرآة الأحوال" هذه، هي الجريدة العربية الثانية بعد تقويم الوقائع المصرية، وقد بقيت تصدر في عاصمة السلطنة العثمانية عدّة سنوات إلى أن فرّ رزق الله حسّون من الأستانة إلى أوربة[1] على أثر حادثة جرت معه، وقيل فيها إنّه اختلس مالاً للدولة فلاذ بالفرار؛ وكان أحمد فارس الشدياق في باريس، فَقَدِمَ إلى الأستانة وأنشأ جريدة "الجوائب" المشهورة، فكانت في وقتها أشهر جريدة عربية في العالم، وكان لها مشتركون في جميع الأقطار الإسلامية، نظرًا لبراعة كاتبها أحمد فارس المعدود، من أكبر كتّاب القرون الأخيرة.

وأمّا رزق الله حسّون، فبعد أن فرّ إلى أوربة، نشر كتابًا تحت عنوان "النفثات"، نال فيه من الدولة العثمانية، ومن صاحب "الجوائب"، فأشار هذا[2] إلى كتاب "النفثات" بقوله: "كان حسّون لصًّا وله سرقات، فانقلب صلاًّ وله نفثات". وأظنّني غير مخطئ إذا قلت إنّه لذلك العهد، أو بعده بقليل، ظهرت جريدة في تونس اسمها "الرائد التونسي"، وظهرت جريدة أخرى في مصر باَسم "وادي النيل"، وربَّما يكون قد صدر في مصر جرائد أخرى لم أسمع بها. ولست محاولاً في هذه العجالة الإحاطة بأسماء جميع الجرائد العربية التي صدرت، وتواريخ صدورها، وإنَّما أنا أذكر الآن أشهرها على سبيل التمثيل، وأقول إنَّه لمَّا انتشرت جريدة "الجوائب"، بمكان أحمد فارس من علم اللغة وبراعة الإنشاء وسعة المدارك، كانت عاملاً قويًا من عوامل النهضة العربية الأدبية، وصار صاحبها يطبع في الأستانة من نفائس الكتب العربية التي كانت مجهولة، والتي اطّلع عليها في خزائن كتب القسطنطينية، ما أُعجب به العالم العربي كلّه، لا سيَّما أنه نشرها بالطبع الجميل، وربَّما كانت

(١) أوروبا.

(٢) أحمد فارس الشدياق.

خدمته للثقافة العربية بهذه المطبوعات في الدرجة الثانية عن خدمة مطبعة «بولاق».
وإنّي قد أدركت، وأنا ابن ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة، عهد أحمد فارس في أواخر عمره، وكان لا يزال، وقد بلغ من الكبر عتيًا، يخدم هذه اللغة الشريفة التي كان من أعلامها، ومن شاء أن يعلم مدى براعة أحمد فارس ومبلغ بلائه في سبيل اللغة العربية والوطن العربي، فليُراجع مجموعة «كنز الرغائب في منتخبات الجوائب»، فهي كتاب يحتوي على سبعة مجلّدات لا يمكن أن يستغني عنه من أراد الاطّلاع على الحركة العلميّة العربية والحركة السياسية العالمية بين ١٧٦٠ ـ ١٨٨٠.



الحركة العلميّة

ولْنُعُد إلى سير الحركة العلميّة في سورية، فنقول: إنَّه إلى حدّ سنة ١٨٨٠، كانت الجرائد منحصرة في بيروت لا تتعدّاها إلى غيرها من مدن سورية، ولم يكن في دمشق سوى جريدة رسميّة للولاية بأسم "سورية". وبعد ذلك بكثير، أصدر مصطفى واصف جريدة اسمها "الشام"، وبعده أصدر الأستاذ كرد علي جريدة سياسية في دمشق اسمها "المقتبس". وكذلك كانت جريدة رسميّة لولاية حلب بأسم "الفرات"، وكلٌّ من جريدتَي "سورية" و"الفرات" كان نصفها بالتركي والنصف الآخر بالعربي، وقلّما كانت تَنْشر شيئًا خارجًا عن الأخبار الرسميّة. وكانت في بغداد جريدة رسميّة اسمها "الزوراء" على هذا النمط أيضًا. وأمّا بيروت، فكانت لا تزال على تقدّمها في طريق العلم والعرفان. وأوّل مدرسة داخلية في بيروت كانت المدرسة الوطنيّة التي أسَّسها المعلِّم بطرس البستاني، ثمَّ أخذت كلّ طائفة من الطوائف المختلفة التي في ساحل سورية تؤسِّس مدرسة داخلية في بيروت، فكان للروم الكاثوليك مدرسة يقال لها "البطريركيّة"، وللموارنة مدرسة يقال لها "الحكمة"، وللمسلمين مدرسة يقال لها "المدرسة السلطانية"، تولّى إدارتها لمدّة من الزمن العلاّمة الشيخ حسين الجسر الطرابلسي، صاحب "الرسالة الحميدية في التأليف بين العلم والدين"، وكان اليهود أيضًا أسَّسوا مدرسة داخلية بأسم "المدرسة الإسرائيلية" كان يديرها زاكي كوهين.

وكان اليسوعيّون قد أنشأوا الكلّية "اليسوعية" مناظرةً للكلّية الأمريكية. وكان في لبنان مدرسة فرنسية في كسروان يُقال لها مدرسة "عينطورة"، انتفع منها كثير ممّن اشتهروا في إتقان اللغة الفرنسية، ثمَّ شرع أساقفة الموارنة يؤسِّسون مدارس لأبناء طائفتهم؛ فكانت مدرسة "قرنة شهوان" ومدرسة "غزير" لبني زوين،

ومدارس أخرى متعدّدة. وقد كان للموارنة، من قبل هذه، مدارس قديمة إكليريكية، مثل مدرسة "عين ورقة"، ومدرسة "مار عبدا هرهريا"، ومدرسة "مار يوحنّا مارون"، وكان للكاثوليك مدرسة في الشوير. وقد اطّلعتُ على مطبوعات قديمة ترجع إلى مئة سنة أو أكثر جرى طبعها في كسروان بمطابع للموارنة منها، مطبعة "دير سيِّدة طاميش". وكان الموارنة من القديم يطبعون بالعربية والسريانية.

ولا يجوز أن ننسى المدرسة التي قام بإنشائها الأمير ملحم أرسلان، بمساعدة سعيد بك تلحوق، لطائفة الدروز في قرية عبيه؛ فقد كانت من أقدم مدارس لبنان، يرجع تأسيسها إلى سنة ١٨٦٢.

وكانت تقبل الطلبة مجانًا لاعتمادها في نفقاتها على الأوقاف التي ألحقها بها الأمير المشار إليه. ولمّا تولّى قائمقامية ابن عمّه الأمير مصطفى، زاد الاعتناء بها وانتدب لها من الأساتذة مثل العلاّمة الشيخ أحمد عبّاس البيروتي وأمثاله، وهي هي نفس المدرسة التي يشرف على إدارتها الآن الأستاذ عارف النكدي، مدير العدلية في الدولة السورية، بما اشتُهر به من الدراية والأمانة وعلوّ الهمّة.

ثمَّ نقول إنَّه كان ازدياد عدد الجرائد متساوقًا مع ازدياد عدد المدارس، فظهرت في بيروت بعد الجرائد، المتقدِّم ذكرها، جريدة "لسان الحال" لصاحبها خليل سركيس، وجريدة "المتقدّم" التي كان يتولّى تحريرها أديب اسحق، الكاتب المشهور في وقته، وجريدة "المصباح" التي أنشأها المطران يوسف الدبس، مؤسِّس مدرسة "الحكمة"، وعَهَدَ بإدارتها وتحريرها إلى نقولا أفندي النقّاش، من أعضاء مجلس الأمّة العثماني، وإلى بولس زين من أدباء الموارنة.

وكانت مجلَّة "المقتطف" قد صدرت في بيروت لصاحبيها العلاّمتين الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر، ومن أوّل نشأتها كانت مجلَّة راقية حافلة بالفوائد العلميّة والصناعية والتاريخية واللغوية.

وممّا لا جدال فيه أنَّ «للمقتطف» أثرًا بليغًا في عموم النهضة العربية، ولا ينكره إلاّ كلّ مكابر. ومن مساعي العلاّمتين الشهيرين صرّوف ونمر، تأسيس مجمع علمي في بيروت سمّوه[1] المجمع العلمي الشرقي، قد ضمّ نخبة العلماء والأدباء الذين كان يشار إليهم بالبَنان في ذلك الوقت، ولم يكن هذا المجمع أوّل مجمع علمي في بيروت، بل قد سبقته جمعيّة علميّة تأسّست قبل ذلك بنحو من عشرين سنة، كان رئيسها الأمير محمَّد الأمين أرسلان، وكان من أعضائها الشيخ يوسف الأسير، والشيخ ابراهيم الأحدب، والشيخ ناصيف اليازجي، والمعلِّم بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف، والسيِّد حسين بيهم، وسليم أفندي رمضان، وغيرهم من علماء ذلك الوقت وأدبائه.

وفي نواحي سنة ١٨٨٤، فيما أتذكّر، كان الشيخ عبد المجيد الخاني، الأديب الدمشقي البارع، جاء إلى بيروت، فذكر ما رآه فيها من الرقيّ الفكري، وسرد أسماء جرائدها نظمًا، فقال:

ثمراتُ مقتطفِ الجنانِ بشيرُهَا ... بلسانِ مصباح التقدّمِ قائلُ
ظِلُّ المعارفِ وارفٌ في أرضِ بيرو ... تَ ورهطُ الفضلِ فيها قائلُ

ثمَّ أنشأ علي بك ناصر الدين مجلَّة اسمها «الصفاء»، صارت فيما بعد جريدة سياسية، ولا تزال إلى هذا اليوم قائمة حقّ القيام بخدمة العلم والأدب. وقد كان لي فيها أوّل مقابلة صدرت من قلمي وذلك سنة ١٨٨٥. وأصدر عبد القادر أفندي الدنا جريدة باَسم «بيروت»، كان يكتب فيها الأستاذ البليغ السيِّد مرتضى الجزائري، ابن أخي المغفور له الأمير عبد القادر.

- ثمانون جريدة في سوريا

ولكنَّ عدد الجرائد لم يزدد هذا الازدياد الرائع إلاّ بعد إعلان الدستور

---

(١) أسمياه.

ومن قبله صدرت جريدة «طرابلس» التي كان ينشئها الشيخ حسين الجسر، ولم يكن جريدة سواها تصدر في غير بيروت من مدن سورية، إلاّ أنه لمَّا أُعلن الدستور العثماني وتقرّرت حرّية الصحافة، أخذت الجرائد تنتشر بسرعة عظيمة. فلمّا نشبت الحرب الكبرى، كان يُنشر في سورية وفلسطين ثمانون جريدة موزّعة بين بيروت ولبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس. وكانت تظهر في هذه البلاد مجلاّت شهرية وأسبوعية لا تقلّ عن بضع عشرة مجلَّة، ولا نجد لزومًا لسرد أسماء جميع هذه الجرائد، وهذه المجلاَّت. وهذا أوّل دليل على سرعة الرقيّ العلمي في سورية، وليس في الكلام أفصح من الأرقام؛ فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القرّاء، ووفرة عدد القرّاء دليل على صدق عمل المدارس. نعم، إنَّه لا يزال عدد الأمّيين كثيرًا في هذه البلاد، وربَّما بلغ مع الأسف ٦٠ بالمئة، ولكنَّ المظنون، بحسب ما نراه من إقبال الأهلين على تعليم أبنائهم، أنه لا يمضي عشر سنوات حتَّى ينزل عدد الأمّيين إلى عشرين بالمئة. وقد كان في بيروت بضع عشرة مطبعة، فتضاعف هذا العدد مرّتين وثلاثًا، وتأسّست مطابع كثيرة في سائر المدن السورية، وليس عمل هذه المطابع كلّه منحصرًا في طبع الجرائد، بل هي تقوم بطبع الكتب التي لا تُطبَع إلاّ إذا كان أصحاب المطابع يجدون لها عددًا كافيًا من المشترين. وإنَّ مكانة الصحافة الآن في سورية ولبنان، بالقياس إلى عدد أهلها، لا تقلّ عن مكانة الصحافة في أوروبة.

فأمّا في مصر، فممّا لا شكّ فيه أنَّ الصحافة أرقى منها في سورية، لأنَّ ثروة مصر أعظم من ثروة سورية بكثير. وقد كان في أثناء ثورة عرابي باشا، أي سنة ١٨٨٢، يصدر في مصر بضع جرائد لا غير منها، «الأهرام» و«اللطائف» و«المفيد» وغيرها. فما زال عدد الجرائد يرتقي إلى أن تضاعف مرارًا، وإنَّ بعض جرائدها اليوميّة تصدر بثماني صفحات أو ستّ عشرة صفحة. ومنها جرائد مصوّرة كثيرة، وربّما تُطبع الواحدة من جرائد مصر الكبرى من ثلاثين إلى أربعين ألف نسخة. وقد أكّد لي أحد الإخباريين الأوروبيين الذين يراسلون «الأهرام» من أمّهات

الجرائد المصرية أنَّ هذه الجريدة لو وضعت في جانب صحف باريس في الإتقان وسعة النفقات وكثرة القرّاء، لكانت معادلة لأحسنها.

ولمّا كانت الأمثال أحسن مظهر لحقائق الأشياء وأبلغ مؤثّر في النفوس، رأيت الآن إيراد مثال وقع معي، وكنت قد ذكرته في مجلّة «المقتطف»، ومنه يتبيّن الفرق الهائل بين حالة الصحافة في مصر منذ أربعين سنة وحالتها منذ عشرين سنة:

قلت في «المقتطف» إنّني كنت زرت مصر سنة ١٨٩٠، وكنّا نجتمع في مجلس الإمام الشيخ محمَّد عبده. وأكثر ما كنّا نسمر[1] عند سعد باشا زغلول، وهو يومئذٍ سعد أفندي زغلول، وكان من المحامين المشهورين بمصر، وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت[2] الخلقة، اسمه الشيخ علي يوسف، إذا أتى جلس في آخر المجلس ولبث أكثر المجلس ساكنًا مستمعًا تكاد تُرثى له لضعفه ولمسكنته؛ وكان قد بدأ بإصدار جريدة اسمها «المؤيّد» كانت تظهر مرّتين بالأسبوع، وهو يعجز أن يجعلها يوميّة، إلاّ أنَّ هذا الرجل، على ضؤولة جسمه، كانت بادية عليه سيماء الهمّة والعزم، فزرته مرّة في مطبعة «المؤيّد» فرأيته جالسًا على مقعد رثّ لا يسع أكثر من ثلاثة جلوس، بعضهم ملزوز إلى بعض، وأمامه منضدة بدون غطاء عليها من بقع الحبر ما يهول الناظر، وهو يعالج تحرير مقالته في دخول العام الهجري الجديد حينئذٍ، ولا يعرف كيف يصوغها، وكانت بجانب تلك الغرفة غرفة ثانية فيها المطبعة. وبين الغرفتين باب مفتوح، وأنا من مكان جلوسي أرى منضّدي الحروف من خلال ذلك الباب، يصفّون الحروف. ثمَّ إنّي رأيت الشيخ عليا في تعب زائد مع مقالته هذه عن الحول الجديد، وهو يكتب ويطلس ويمحو ويثبت، فقلت له: لو قلت كذا وكذا. فأجابني: بالله عليك تكتب أنت هذه الافتتاحية، فكتبتها أمامه.

---

(١) مصدرها «السَّمَر».

(٢) الدقيق الضامر لا هزالاً.

ـ «المؤيّد» تطبع ثلاثين ألف عدد

هذا، وبعد عشرين سنة من ذلك العهد، جئتُ إلى مصر، وأنا ذاهب إلى حرب طرابلس، فماذا وجدت؟ وجدت جريدة «المؤيّد» من أعظم الجرائد اليوميّة في مصر، تطبع كلّ يوم من عشرين إلى ثلاثين ألف نسخة، ووجدت إدارة «المؤيّد» تكاد تكون قصرًا من قصور الأمراء؛ فيها الزرابي المبثوثة، والطنافس الحريرية الفاخرة، بدلاً من ذلك المقعد الحقير عليه ذلك الغطاء القديم من الشيت بدون حشوة، ووجدتُ مطبعة بخارية من أكبر المطابع، كان صاحب «المؤيّد» اشتراها بخمسة آلاف جنيه، مع أنَّ تلك المطبعة القديمة التي رأيتها من قبل ما كانت لتساوي ١٠٠ جنيه.

ثمَّ وجدتُ الشيخ علي يوسف نفسه، من أكتب كتّاب مصر وأسيلهم قلمًا، فضلاً عن أني وجدته من عيون أعيان مصر وأشهرهم ذكرًا. ولم يغفل الشيخ عن أن يذكّرني بزيارتي الأولى عندما كان على تلك الحالة الرثّة، وأن يقابل بها حالة الترف التي رأيته عليها يوم زيارتي الثانية، فهذا المثال البارز كافٍ لقياس درجة الرقيّ الفكري في الشرق[1].

ـ انتشار الصحافة في العالم الإسلامي

ولقد كانت الصحافة العربية فيما مضى منحصرة في القطرين المصري والشامي، فصارت الآن منبثّة في جميع الأقطار العربية. ففي العراق، بضع عشرة جريدة ومجلّة، منها ما هو في بغداد ومنها ما هو في البصرة. وكذلك ظهرت جرائد في الحجاز قد كان أوّلها جريدة «القبلة» في زمن الملك حسين، ولمّا استولى ابن سعود على الحجاز استبدل بها «أم القرى»، ثمَّ ظهرت جريدة اسمها «صوت

(١) لا حاجة بنا إلى سرد أسماء الجرائد المصرية الكثيرة، ولا إلى سرد أسماء الجرائد السورية الصادرة في دمشق وحلب وبيروت وفلسطين، ولا إلى ذكر المجلات الشهيرة كالمقتطف، والهلال، والرسالة وأمثالها، فإنَّ الأعلام الشهيرة لا تُعرَّف ولا تحتاج إلى تعريف.

الحجاز» في مكّة، وجريدة ومجلّة في المدينة المنوّرة، وصدرت جريدة «الإيمان» للحكومة اليمانية في صنعاء، وصدرت جرائد عربية وراء البحار أشهرها جريدة «حضرموت» في جاوة، كما أنه يوجد في الهند مجلّة عربية اسمها «الضياء» للأستاذ مسعود الندوي.

أمّا في المهجر، فإنَّ للعرب نحوًا من ثلاثين جريدة ومجلّة، منها ما هو في أمريكة الشمالية وما هو في أمريكة الجنوبية، وفي المهاجر العربية هناك من الكتّاب والشعراء والأدباء والأطبّاء والفلاسفة نفر تفخر بهم أوطانهم، وهم جزء متمِّم للعالم العربي الأدبي، لا يتمّ إلاّ بهم. وإنِّي أشبّه الجاليات العربية في وسط هاتيك الأمم الأجنبية التي تُحصى بمئات الملايين، بجزائر عربية صغيرة في أوقيانوس من العُجمة لا نهاية له. وقد احتفظتْ، مع ذلك، هذه الجزائر الصغيرة بلغَّتها العربية وآدابها وأذواقها ومنازعها ومشاربها، وهذا لعمري برهان الأصالة والنبالة وعلوّ الهمّة؛ فإنَّ الذي يخجل بوطنه وقومه ليس بإنسان. وفي نيويورك شارع كبير خاص بالعرب تجد فيه فوق أبواب المخازن العناوين العربية فوق الإنكليزية، وتنظر المطاعم العربية التي تطهو من المآكل الشرقية المتنوّعة ما يكون قد درس بتمامه في البلاد العربية الأصلية.

وإنَّك لتسمع الموسيقى ثمّة العربية كيفما توجّهت، سواء من المغنّين أو من الآلات الحاكية. وإذا نظرت إلى النوافذ، وجدت فيها الأصص من الفخّار فيها الرياحين، وأكثرها من الحبق الذي يقال له الريحان في دمشق، وفي لبنان الحبق. ويظهر أنَّ العرب يأخذون هذه الريحانة أينما ذهبوا في الأرض؛ فإنِّي قد وجدتها بكثرة في إسبانيا، وهي حافظة اسمها العربي، فيقول لها الإسبانيول «هبقة»، أي حبقة. ومن غرائب ما سمعته عن اعتصام السوريين بعاداتهم القومية وهم في المهجر أنَّ كثيرين منهم يسكنون في حارات على حدة، وربَّما بنوا قرى منفردة لأنفسهم، وذلك ليكونوا أحرارًا في ممارسة عاداتهم التي كانت لهم في بلادهم الأصلية، فإذا حصلت أعراس عندهم حسبتها واقعة في نفس سوريا، بما فيها من

الأغاريد والأناشيد والزغاريد، وما يقال له في لبنان «التراويد». وقد حضرتُ في نيويورك عرس فوزي بك البريدي من زحلة، وقد اجتمع فيه أبناء العرب، فخلتُ نفسي في زحلة أو في أيَّة بلدة من لبنان، وكذلك قيل لي إنَّهم في الأماكن التي يسكن فيها السوريون على حدة يمارسون عاداتهم الأصلية بالمآتم، فتندب النساء من جهة حول الميت، ويندب الرجال من جهة أخرى، وهم يذهبون ويجيئون وبأيديهم المناديل يهزّونها في الهواء، وهي ما كان العرب يقولون له المآلي واحدة مئلاة، إلاّ أنَّ بقاء هذه الحالة عند السوريين المهاجرين لا يعدو العصر الحاضر لأنَّ أعقابهم مع الأسف ذائبون، إلاّ ما نَدَرَ، في الجنسية الأمريكية. وقلّما رأينا من ذراريهم المولودين في أمريكة من يعرف اللغة العربية، لا سيَّما الذين أمّهاتهم من هناك، وقد عالج بعضهم هذه الحالة وحاولوا استبقاء اللغة العربية بين المولودين في أمريكة من أبنائهم، وفتحوا مكاتب وكتاتيب علمتُ بوجود اثنين منها في ديترويت ومشيغن، وحدّثوني عن غيرهما، ولكنَّ هذا العوز لا ينسد، مع الأسف، ببضعة كتاتيب، فالسوريون الذين في أمريكة الشمالية يزيدون على ٢٠٠ ألف نسمة، وهم في الأميريكتين جميعًا أكثر من نصف مليون.

وقد قيل لي: إنَّ أعلى المهاجرين العرب همًما من جهة الاحتفاظ بلغتهم هم مهاجرو العرب في البرازيل الذين عندهم مجلاّت راقية وجرائد مفيدة، كما يوجد مثل ذلك في نيويورك. ولم يقتصروا في البرازيل على بعض الكتاتيب لاستبقاء عروبة أبنائهم، بل أسّسوا هناك لهذا الغرض مدارس عالية يدرس الطلبة فيها العربية الفصحى في جانب اللغة البرتغالية التي يتكلّم بها أهل البرازيل. أمّا إذا بقيت أبواب المهاجرة مسدودة على العرب في أمريكة الشمالية، فلا تمضي عليهم أكثر من نصف قرن حتَّى ينقرض منها، مع الأسف، كلّ شيء أصله عربي، ويصير وجود العرب في تلك القارّة خبرًا من الأخبار التاريخية.

ـ الصحافة العربية في شمالي أفريقية

ولنعد إلى حديث الصحافة العربية الذي كنّا في صدده، فنقول: إنَّ شمالي أفريقية قد نهض في العصر الحاضر نهضة أكيدة، وكَثُرَت فيه الجرائد العربية والمطابع وسائر أدوات النشر التي تعوِّل عليها كلّ أمّة ناهضة. ولم يكن في بادئ الأمر بغير تونس جرائد عربية مغربية، وقد تقدّم ذكرنا لجريدة «الرائد التونسي» التي كانت تصدر في ما أذكر من قبل احتلال فرنسة لتونس، أي منذ ستّين سنة. وبعد ذلك، صدرت في تونس جرائد أخرى، وفي يومنا هذا تصدر في تونس عدّة جرائد ومجلاّت راقية كـ «الزهرة» و«النهضة» و «الصواب» و«المجلَّة الزيتونية»، وغيرها. وأمّا الجزائر، فقد كانت تصدر فيها منذ خمسين سنة جريدة عربية واحدة اسمها «المبشّر»، وأظنّها كانت الجريدة الرسميّة للحكومة إلاّ أنَّ الأهالي منذ بضع عشرة سنة نشروا جرائد متعدّدة في مدينة الجزائر وفي قسنطينة أتذكّر منها، «البلاغ» و«وادي تراب»، وأمّا اليوم، فمن أشهرها جريدة «البصائر» ومجلَّة «الشهاب». ولم يقتصر إخواننا التوانسة والجزائريون على نشر أفكارهم في الصحف العربية التي أصدروها، بل لأجل إمكان تفاهمهم مع الفرنسيس[1] المحتلّين لبلادهم، وللمطالبة بحقوقهم، عمدوا إلى نشر جرائد وطنية عربية إسلامية باللغة الفرنسية وذلك على نسق مجلّتنا العربية المنهج، الإفرنسية الملهج، «لا ناسيون آراب»[2]. ومثل ذلك وقع في المغرب الأقصى الذي كانت السلطة مانعة فيه الأهالي الوطنيّين من نشر الجرائد بتاتًا، خلافًا للأجانب الذين كان، ولا يزال، يؤذن لهم بذلك، بل كان محظورًا إدخال الجرائد العربية الصادرة في البلاد الأخرى إلى المغرب، وربَّما عوقب من وجد قارئًا لجريدة كهذه، إلاّ أنَّ الأهالي لم يزالوا يعترضون على السلطة من أجل هذا الضغط الشديد على حرّية القراءة في بلادهم حتَّى سمحت من سنوات لبعض الأدباء بإصدار مجلَّة علميّة في الرباط اسمها «المغرب»، أذنت

(١) الفرنسيين.

(٢) La Nation Arabe.

لها في الظهور على شرط أن تكون موالية للحكومة، فاضطرّ الحزب الوطني في المغرب إلى إصدار مجلّة إفرنسية في نفس باريز بأسم «المغرب Magreb»، جعلوا إدارتها بيد ضيف سورية الحالي روبير جان لونغة(١) الذي هو وأبوه جاهدا كثيرًا في النضال عن المسلمين الذين تحت حكم فرنسا، وفي منحهم جميع الحرّيات التي لهم الحقّ فيها. فلمّا ظهرت مجلّة «مغرب»، وأقبل شبّان ذلك القطر العزيز ينشرون فيها باللغة الإفرنسية من المقالات القيّمة والآراء السديدة، ما أحدث تأثيرًا عظيمًا في نفس باريس، انتقمت السلطة من تلك المجلّة بمنعها من دخول المغرب نفسه، فأصبحت في المقيم المقعد مع الوطنيّين الذين كانت ترأسهم عصبة العمل القومي. ومنذ سنتين، تمكّن السيِّد محمَّد بن الحسن الوزّاني، من زعماء النهضة الوطنية في المغرب، من إصدار جريدة في فاس باللغة الفرنسية سمّاها بـ «عمل الشعب»(٢)، وجعل مديرها إفرنسيًّا حتَّى لا تتمكّن السلطة من تعطيلها. فلمّا ظهرت هذه الجريدة وأخذت تناضل عن حقوق الأهلين وتناقش بشدّة الصحف الفرنسية الصادرة هناك، أمرت السلطة بتعطيل هذه الجريدة خلافًا للقانون، فبقي أهل المغرب يئنّون من هذا الضغط إلى أن تولّت فرنسة، ولله الحمد، الوزارة الشعبيّة في السنة الماضية، فراجعتها عصبة العمل القومي في موضوع حرّية الاجتماع والكتابة. وما زالت المراجعات مستمرّة بإصرار إلى أن أذنت السلطة لعصبة العمل القومي بإصدار جريدتين، إحداهما بالعربية اسمها «الأطلس»، يتولّى تحريرها السيِّد محمَّد اليزيدي، وأخرى بالإفرنسية اسمها «العمل الشعبي»(٣) يحرّرها السيِّدان أحمد بلافريج وعمر عبد الجليل من زعماء الحركة الوطنية المغربية. وصدرت أيضًا جريدة «عمل الشعب» للسيِّد محمَّد بن الحسن الوزّاني، وجريدة أخرى بالعربية يقال لها «الوداد»، كما أنه صدرت في تطوان من المنطقة التي يحتلّها الإسبانيول جريدة «الريف» وجريدة «الحرّية» لحزب الإصلاح الوطني، وجريدة «الوحدة

(١) Robert Gean Longuet.

(٢) L'action du Peuple.

(٣) L'action Populaire.

المغربية » للمكّي الناصري. ومن قبل، كانت جريدة «الحياة» للسيِّد عبد الخالق الطوريس، ومجلَّة «السلاح» للسيِّد محمَّد داود. وأمّا في طرابلس الغرب، فلم يكن أيام الدولة العثمانية غير جريدة «الولاية» الرسميّة، وفي الوقت الحاضر، توجد جريدة للحكومة في طرابلس وأخرى في بنغازي، ولكنَّ الطرابلسيين يقرأون الجرائد العربية التي ترد عليهم من الشرق والغرب بلذّة زائدة، ولا عجب، فإنَّ علاقاتهم من جهة الشرق مع مصر والشام، ومن جهة الغرب مع تونس، هي علاقات أقطار شقيقة. وفي زنجبار من شرقي أفريقية، مطبعة سلطانية من قديم الزمن، اطّلعنا على كتب مطبوعة فيها، ومؤخّرًا وصلت إلينا جريدة عربية صادرة في جزيرة زنجبار هذه.

فهذه هي لمحة دالّة عن الصحافة العربية في الخمسين من السنين الأخيرة لا نزعم فيها الإحاطة، وإنَّما نجتزئ بالإشارة التي تعطي القارئ صورة صحيحة عن هذا البحث. وبالجملة، فالصحافة العربية كانت من أعظم عوامل نهضة العرب ولا تزال تتقدّم إلى الأمام.



المدارس في العالم العربي

إنَّ الجرائد ليست وحدها هي المقياس الكافي لأجل إعطاء صورة صحيحة عن درجة الرقيّ، بل المقياس الأكبر هو المدارس. فمدينة بيروت مثلاً، وعدد سكانها نحو من مئتي ألف نسمة، فيها من المدارس والجامعات ما لو قارنته بجامعات أوروبة ومدارسها لم تكن قاصرة عنها، وربّما كانت زائدة عليها إذا روعيت نسبة عدد السكان. وقد كنت منذ ٢٥ سنة في مدينة نابلس التي لم يكن أهلها يزيدون على ٢٥ ألف نسمة، فبحثتُ عن عدد المتعلّمين في هذه البلدة، فكانوا ٢٠٠٠ من الأحداث في المكاتب الأميرية، وأحصينا عدد طلاب المدارس العالية في الأستانة فبلغوا مائة شاب. فإذا نظرنا إلى عدد أهالي نابلس، وجدنا عدد طلاّب العلم من أهلها لا يقلّ عمّا يجب أن يكون في أيّ بلاد راقية. وليس هذا المثال وحيدًا في بابه، بل له أمثلة كثيرة في سورية، وإن كنتُ لا أزال أتأسّف من بقاء الأمّية في البلاد إلى هذا الوقت أكثر ممّا كنتُ أظنّ، وذلك بغلبة البوادي والقرى المفتقرة إلى التعليم، ولم يكن هذا كلّه من تقصير الحكومة وفقد إرادة العمل، وإنَّما للميزانية المالية العمومية دخل في نزول درجة التعليم عمّا يجب أن تكون. ومن الغريب أنَّ الأمّية في مصر لا تزال أكثر منها في سورية بالرغم من أنَّ بين القطرين بونًا شاسعًا في درجة الثروة، أمّا تقدّم التعليم في سائر البلاد العربية، فأكثر ما برز منه للعيان بمدّة قصيرة هو في المملكة العراقية، لا سيَّما بعد أن حصلت على استقلالها، فإنَّه في وقت قصير أنشئت في العراق عدّة مدارس عالية كـ "دار المعلّمين" في بغداد والموصل، ومدرسة "الطبّ الثانوية المركزية" وعدّة مدارس ثانوية متوسّطة، وعدد لا يُحصى من المدارس الابتدائية. وفي العراق المدارس المسمّاة "رياض الأطفال" كثيرة، وهي أرقى من أمثالها في سورية، والفضل يرجع في إتقان هذه الرياض إلى المربّي العربي الكبير الأستاذ ساطع الحصري، ثمَّ قد بلغني أنَّ الكتبية من القاهرة وغيرها

يصدّرون كلّ سنة مقادير جسيمة من الكتب المدرسيّة وغيرها إلى العراق، وإنّ هذا يزداد عامًا فعامًا.

أمّا في سورية، فجامعتها العلميّة تتألّف من كلّية الطبّ، وكلّية الحقوق، والمدرسة التجهيزية الكبرى للبنين، ومن فروعها دار المعلّمين الابتدائية والعالية، ومدرسة تجهيزية أخرى للبنات وفيها دار للمعلّمات أيضًا، ومدارس ابتدائية كثيرة. وفي حلب، مدرسة تجهيزية، ومثلها في دير الزور، ومثلها في حماة، وأخرى في حمص، ولو كانت الميزانية المالية كافية لقطعت سورية في أقصر وقت أبعد مرحلة في طريق التعليم، وهذا ما نأمل الوصول إليه في غير بعيد من الزمن، ولا سيَّما بعد أن نالت البلاد استقلالها، فإنَّه لا يُرجى نهضة علميّة إلاّ بنهضة سياسية. فهاتان توأمان دائمًا. وقد بلغني من وزير المعارف الدكتور الكيالي أنه لمّا ضاقت مكاتب الحكومة في هذه السنة عن استيعاب جميع الأولاد الذين يريد أهلوهم إدخالهم فيها، أوصى الوزير مديري المدارس الابتدائية بتسجيل جميع من يريد الدخول فيها، كما أوصى مديري الكتاتيب الأهلية الحرّة بأن يقبلوا كلّ من يأتيهم على أن تؤدّي إليهم الحكومة النفقات اللازمة؛ فيقظة الأمّة، ولا سيَّما بعد استقلالها الحديث، غير محتاجة إلى استدلال.

ـ المجمع العلمي في دمشق ومصر

ولا يجوز لنا أن ننسى ذكر مجمعنا العلمي، هذا الذي كان أوّل مجمع على نسق أكاديميات أوروبة في الأقطار الشرقية؛ فإنَّه يضمّ نيّفًا ومائة عالم شرقي ومستشرق، كلّهم من ذوي الشهرة الطائرة سواء في الغرب أو في الشرق. وللمجمع مجلَّة علميّة من أرقى ما صدر من المجلاّت في العربية وأدقّها بحثًا، وأحسنها أسلوبًا، وأجمعها للنوادر، وأحفلها بالفوائد، ولا يستغني متخصّص في العربية، إذا أراد جدّ الاطّلاع عليها، عن اقتناء مجموعة هذه المجلَّة منذ صدورها. وقد سبقت سورية

مصرًا في تأسيس هذا المجمع، ولكنَّ مصر عادت فسدّت هذا العوز بتأسيس مجمعها الحالي، فكلا المجمعين الشقيقين يخدم هذه اللغة الشريفة وثقافتها بكلّ ما أوتي من قوّة ووسائل. ولنا الأمل بأن يسير المجمعان معًا إلى الأمام خطوات واسعة، وأنَّ حكومتَي القطرين تشدّ أزرهما بالمال إلى الحدّ الذي يمكّنهما من القيام بخدمات جُلَّى للعربية والعروبة، كما هو الشأن في أكاديميَّات الممالك الأوروبية. فإنَّ أمام العرب مهمّات عظيمة في إثارة دفائن عقولهم، وكشف دارس مدنيّتهم، والتنقيب عن دقائق تاريخهم، لا يقوم بها إلاّ هذه المجامع العلميّة التي هي أيضًا لا تقوم إلاّ بتوفير أقساطها من الميزانية المالية، ولستُ متعرّضًا الآن إلى الكلام عمّا قام به المجمعان الشامي والمصري من الخدمة اللغوية بإيجاد الألفاظ التي تقتضيها حاجة العصر، وإحياء ما وُجد منها في لغتنا بتطبيقه على المعاني المناسبة له، فإنَّ من شاء أن يعرف طائلاً من هذا الأمر يقدر أن يراجع مجلاّت هذين المجمعين.

وإنّا نكون غفلنا عن الحقّ وأهملناه جانبًا إذا كنّا لا نقول إنَّه في القرون الأخيرة لولا بقاء الأزهر والأموي والزيتونة والقرويين، لم يكن بقي أثر من آثار اللغة العربية، فضلاً عن الشريعة الإسلامية. فهذه المساجد الأربعة هي التي في الدرجة الأولى قد وَقَتْ هذه اللغة من الدثور، وهذه الشريعة من البوار، وقد كانت الفوضى في القرون الأخيرة المذكورة قد نسفت عمران هذه البلدان، إلاّ بقايا تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، وتسلّط على هذه الأقطار ولاة أتوا على الحرث والنسل، وهدموا كلّ شيء وطمسوا كلّ رسم، ومع هذا، فقد بقيت هذه المساجد الأربعة، بنوع خاص، مع مساجد أخرى كانت تجري مجراها؛ تُقيم العربية على أركان، وتصدّ غارات الجهل عليها وعلى الشريعة بقدر الإمكان، فكيف تثبت هذه العربية وهذه الشريعة في وسط هذا الزوال؟ وكيف بقيتا في بهرة هذا الفناء مدّة تزيد على أربعة أو خمسة قرون تعاور العالم الإسلامي فيها الانهيار من كلّ جانب؟ إنَّ هذا لعجب عجاب!

ولا شكّ أنّ ثبات الشريعة واللغة في وجه هذه الصدمات السياسية التي تدكدك الجبال هو الدليل الكافي على متانة أصولهما ورسوخ قواعدهما، وغزارة القوّة الحيوية التي فيهما. وفي مصر، عدا الأزهر، معاهد كثيرة للعلم مثل، الجامعة المصرية، ومدرسة القضاء الشرعي، ومدارس الحقوق والهندسة والزراعة ممّا لا يتيسّر لي استقصاؤه الآن، وإنّما أشير إلى نتائجه الباهرة؛ فإنّه لا يكابر مكابر في أنّ الحركة السياسية الأخيرة التي جرت في مصر في الشتاء الماضي وانتهت باستقلالها بالرغم من معارضات الإنكليز تحت مختلف العلل، إنّما كانت ثمرة هذه المدارس؛ لأنّ الذين تولّوا هذا الأمر هم العشرة الآلاف طالب الذين ثاروا في القاهرة ثورة الرجل الواحد وتنجّزوا الاستقلال التام لوطنهم تنجُّز المستميت، باذلين من دونه دماءهم بذل السخي لماله.

ـ أثر الزيتونة والقرويين والأموي

وكما قام الأزهر بالواجب الذي عليه في مصر وكان أشبه بالصخرة العالية التي كانت تتكسّر عليها أمواج الجهل والفوضى، وكذلك كان جامع «الزيتونة» في تونس، وجامع «القرويين» في فاس، و«الجامع الأموي» في دمشق، ومنها ومن المساجد الأخرى خرّج العلماء الأعلام والمصابيح الذين أناروا الإسلام في دياجي ذلك الظلام. ومن هؤلاء أيضًا خرج أولئك العلماء الوطنيون الذين أرادوا إدخال العلوم العصرية في البلاد والتحقّق بمعارف الأوربيين حتّى لا يبقى الشرق مقصّرًا عن الغرب، فكانت الجامعات والمدارس العصرية الكثيرة وكان إرسال البعثات العلميّة إلى أوربا من أيام محمّد علي إلى اليوم.

❁ ❁ ❁

النهضة العلميّة والدعوة الوهّابية

ولا يظنّ ظانٌّ أنَّ الحركة التعليميّة في جزيرة العرب قد بقيت كما كانت من ذي قبل. فأمّا في نجد والحجاز، فلا يخفى أنَّ الدعوة الوهّابية توجب حمل جميع الناس على التعليم بدون استثناء. وهو عندهم بمقام الجهاد. فترى المعلِّمين والفقهاء يجوبون الحواضر والبوادي ويفتحون الكتاتيب للأحداث، وربَّما شرَّقت قبائل من العرب وغرَّبت والمعلِّمون معها حتَّى لا ينقطع التعليم بالرحيل، فالأمّية في البلاد الخاضعة لسلطان ابن سعود ستكون نادرة، ولكن يعترض بعضهم قائلاً:

إنَّ هذا التعليم النجدي لا يساعد الرقيّ المدني، بل هو من النمط القديم الجامد الذي ليس فيه كبير جداء لأهل هذا العصر، وهذا القول مردود من وجوه؛ أولاً، إنَّ النجديين يلتزمون تعميم القراءة والكتابة في البدو والحضر، فزوال الأمّية هو بنفسه درجة عالية من العلم. ثمَّ إنَّهم يحفِّظون الأحداث القرآن الكريم ويفسّرونه لهم بعد رشدهم، وأيّ كتاب حثّ على العلم والتعليم والسير والنظر أكثر من القرآن؟! وأيّ كتاب قدّس العلم والعلماء ونوّه بالحكمة والحكماء أكثر من القرآن؟!

- الإصلاح والعمران في المملكة السعودية

ثمَّ إنَّ منزع النجديين في الدين نزع إصلاح وترقية وتنقية، ومشربه بعيد بالمرّة عن الخرافات، فهو مشرب إصلاحي مستحبّ جدًّا في العصر الحاضر. وإذا سألت الأوروبيين أنفسهم، قالوا لك إنَّ مثل هذا المشرب هو الذي فكّ قيود الأفكار وحلّ عقل العقول في أوروبة، وكان فاتحة عهد الارتقاء، وكثيرًا ما أطلق الأوروبيون على الوهّابيين لقب "بروتستان الإسلام"، ثمَّ إنَّ هذا الملك عبد العزيز بن سعود،

إمام الوهّابيين القائم بتنفيذ مبادئهم، لا يقف عن قبول أيّ علم نافع أو اختراع عصري مفيد؛ فهو يجهّز مملكته بجميع طرق العمران الحديثة، وعنده التلغراف السلكي واللاسلكي في جميع بلاده، وعنده التليفون والراديو، وعنده السيّارات الكهربائية تسير في طول البلاد وعرضها، حتّى صارت تلك الأرض الشاسعة الواسعة تُطوى طيّ السجلّ للكتاب. ومن أعمال ابن السعود، اعتناؤه بالصحّة العمومية وتعويله فيها على الوسائل العصرية الحديثة، وقد بدأ يستخدم الطيّارات في الجيش، ولو كانت ميزانيته المالية تأذن له في الإنفاق كما يشاء، لما سبقه في هذا الميدان سابق، ولكانت الأدوات العصرية في جيشه لا تقلّ عن مثلها في أيّ جيش أوربي، ولكنَّ المال قوام الأعمال. ثمَّ إذا كان المراد من العلم والتعليم هو إيجاد الأمنة في السوابل، فلا يكون في هذا المعنى أرقى من مملكة ابن سعود؛ لأنَّ الأمن العام ضارب أطنابه في بلاده كلّها، وواصل إلى الدرجة التي يتحدّث عنها المؤرِّخون في الكتب بعد أن كانت تلك الصحارى أشبه بمسبعة تزأر فيها الضواري من كلّ فجّ. وبالاختصار، فالوهّابيون يقبلون كلّ إصلاح ما لم يصادم الدين، والعلم والدين لا يتصادمان في الحقيقة إلاّ عند من لم يحسن فهم كلّ منهما.

ـ النهضة العلميّة في اليمن

أمّا اليمن، فإنَّه يضارع مملكة ابن السعود في أمرين: عموم التعليم، والأمن الشامل؛ فقد بلغني أنه لا يكاد يوجد في اليمن قرية تخلو من فقيه يعلِّم الأحداث القراءة والكتابة، وأنه لا توجد مدينة ولا قصبة في اليمن إلاّ فيها حلقات تدريس للعلوم اللغوية والشرعية، فالأمّية في اليمن نادرة. نعم، لا يوجد هناك من يعتني بالعلوم العصرية إلاّ نادرًا، وهي علّة قد تُزاح قريبًا؛ لأنَّ العلوم الأدبية لا بدّ أن تثير حركة في الأفكار وتجعل نهضة في النفوس، وهذه من شأنها أن تهتف بنشدان العلوم الطبيعية، وذلك كما جرى في مصر والشام وغيرهما. هذا، وإمام اليمن يحيى بن محمَّد بن حميد الدين هو بنفسه عالم فاضل متبحّر سيّال القلم، لا

يغرب عنه شيء ممّا يجب لترقية بلاده، ولذلك نراه مهتمًّا بالمدرسة العسكرية التي في صنعاء، وعنده معمل سلاح صغير شاهدته بعيني أنا وزميلاي هاشم بك الأتاسي، رئيس الجمهورية السورية، والحاج أمين الحسيني، مفتي القدس الشريف، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، وعلمنا أنَّ هذا المعمل يقدر أن يعمل البنادق وعلف البنادق كما يصنعونها في أوروبة. ورأينا مصنوعات هذا المعمل عيانًا، ولنا الأمل بأن تتّسع دائرة هذا المعمل وأن يتأسّس في البلاد العربية معامل أسلحة كثيرة تكون وافية بحاجات أهلها. ولا ننسى أنَّ العراق والشام والمملكة السعودية هي في مقدّمة الأقطار العربية التي تحتاج إلى مثل هذه المعامل، لأنَّ على العرب واجبًا لا يجوز أن يغفلوا عنه طرفة عين، وهو أن لا يكونوا عيالاً على أوروبة في التسلّح؛ فإنَّه إن أمكنهم ذلك في زمن الحرب، استطاعوا أن يدفعوا الأخطار عن بلادهم. وخيرٌ للأرض أن تستغني بمائها عن مياه غيرها التي يجوز أن تنقطع عنها.

ـ الشعر والشعراء

أمّا اللغة العربية من حيث هي، فقد طارت في هذه الخمسين سنة الأخيرة بجناحين وصارت إلى جلالها الماضي وعنجهيّتها القديمة، فَكَثُر في السنين الأخيرة سواد الكتّاب والشعراء حتَّى صاروا يحصون بالمئات، إن لم يكن بالألوف، ونبغ منهم فحول يقدر الإنسان أن يلزَّهم في صفوف المنشئين والشعراء من أهل القرون الأولى للإسلام عندما كانت اللغة في إبّان سورتها، فلا تنظر في جريدة إلاّ تجد فيها من النَّظْمِ الفائق والترسّل الرائق لشبّان لم تسمع في عمرك بأسمائهم، هذا عدا المفلقين والعباقر الذين صارت بذكرهم الركبان، وحفظ الرواة من شعرهم كما يحفظون شعر المتنبي وأبي تمَّام. ولم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذي نجده في يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية في الأدب منذ خمسين سنة أو ستّين سنة فما قبل. وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب ضُرِبَ به المثل لتفرّده وخلوّ الجوّ من حوله، والحال أنه لو نشرته اليوم من قبره، وعرضته في

الجمع لوجدت أمثاله يعدّون بالعشرات؛ وإنْ كانت لا تزال له طلاوة، فهذه الطلاوة لا ترتفع به إلى صفوف العبقريين، وإنَّما تجعله في صف المجيدين؛ قد كنّا في سورية لا نعرف شاعرًا أحسن من ناصيف اليازجي اللبناني الذي نبغ في بيروت وصارت له تلك الشهرة الطائر باستحقاق، وهو لو وُجد في زماننا هذا لما كان إلاّ واحدًا من جماعة. وكان في بيروت من الشعراء المجيدين عمر الأنسي البيروتي، يقرأ الإنسان شعره بلذّة. وكان قبل الأنسي واليازجي أمين الجندي وبطرس كرامة، كلاهما من حمص، ولهما قصائد كسبا بها شهرة لا تزال لهما إلى اليوم، ولو أنهما عاشا في هذا العصر لم تكن لهما هذه الشهرة بالرغم من إجادتهما، وعلوّ طبقتهما. وقد سأل الأمير بشير الشهابي أمير لبنان في وقته الشيخ أمين الجندي عن المعلِّم بطرس كرامة، قائلاً له: ما نسبة المعلِّم بطرس إليك في الشعر؟ فأجابه: نسبة الثعلب إلى الأسد. ولم يكن هذا الجواب صحيحًا لأنَّ لبطرس كرامة من الشعر، لا سيَّما في الغزل والنسيب، ما لا يقلّ رونقًا عن شعر الجندي.

وكان في بغداد ثلاثة شعراء أو أربعة اشتهرت أسماؤهم في بلادنا مثل، عبد الباقي العمري، وصالح التميمي، وعبد الحميد الموصلي، وعبد الغفّار الأخرس. وكان أكثرهم شهرة عبد الباقي العمري وعبد الحميد الموصلي هنا، بسبب مراسلاتهما مع ناصيف اليازجي، كما أنَّ شهرة صالح التميمي كانت بسبب المناقشة التي وقعت بينه وبين بطرس كرامة. وهذه الطبقة، وإن كانت تعدّ من الطبقة العالية في الأدب، فإنَّ الذين جاؤوا بعدها قد ردّوها إلى الوراء؛ فبعد أن كانت من المجلّين صارت من المصلّين، أللّهم إلاّ إذا حسبنا الشاعر الأرزي الذي لا يلز هؤلاء في قوّته ومن قبله ابن معتوق الذي كان يضارع الشعراء الأوّلين.

وأمّا في مصر، فما بدأ الشعر ينهض إلاّ بنبوغ محمود صفوت، وبعده محمود سامي، وهو صاحب النهضة الشعرية الكبرى. وقد أجمع مؤرِّخو الأدب على أنه مجدِّد الشعر العربي في هذا العصر، وأنه الذي أعاد إليه ديباجته الأولى التي كانت القرون الأخيرة لا تعرف منها شيئًا. وما كان شوقي وحافظ، وغيرهما من شعراء

مصر، إلاّ مبعوثين في عالم الأدب بأنفاس محمود سامي العالية. واليوم، لا يكاد يُحصى عدد المجيدين من شعراء مصر. وأغرب منه نبوغ شعراء في السودان لا يقلّ شعرهم في الإجادة عن شعراء الأقطاب العربية الأخرى.

وقد نبغ في تونس في القرن الماضي محمَّد قبّاد، وهو صاحب تشطير «أفاطم لو شهدت ببطن خبت» الذي دخل فيه مدخلاً لا يفترق عن الأصل، والذي له قصائد أخرى جياد. وجاء بعده شعراء في تونس لم أعلم منهم أحدًا بلغ مداه، وقد هبّت ريح الأدب في هذا العصر في أرجاء الجزائر والمغرب الأقصى، وظهر شعراء ومترسّلون يمكن أن يضعهم القارئ في صعيد واحد مع شعراء الشرق. ومهما قيل في ترقّي الشعراء في هذا العصر الأخير، فأعظم منه قد كان ترقّي الكتابة التي لم تتقدّم في فصاحة الألفاظ وتنقيح الجمل فقط، بل عَلَتْ ببلاغتها وحسن أسلوبها وتشبّعها بالمعاني الكثيرة التي أوجدتها الحركة العلميّة الحديثة، فأُدبل[1] من الصناعة اللفظيّة والسجع الرنّان بالمسحة العلميّة والإنشاء المرسل الملآن. وهذا النوع من الكتابة هو أصعب أنواعها لمن أراد أن يُسمّى كاتبًا، ولا نزاع في أنَّ ترقّي كلّ من فنَّي الشعر والكتابة في الأدب العربي قد كان وليد النهضة العلميّة العامة التي حملت المتأدّبين على مراجعة أحسن ما كتب العرب وخلفّوه في زوايا المكاتب. فسَمَتِ الهمم بسبب هذه النهضة العلميّة إلى طبع الكتب التي لا تزال مجهولة، أو ممّا ينحصر اقتناؤه في بيوت الأمراء والكبراء، فصارت هذه الكتب من مثل ترسّل ابن المقفّع والجاحظ، وأمثالهما، مشاعًا بين جميع عشّاق الأدب. وكانوا كلّما قرأوا كتب الأوربيين شعروا بحاجة إلى مادة أغزر من اللغة العربية، وأساليب أطلى، وفنون أبدع، ومجال أوسع، فكأنَّ اللغات الأجنبية هي نفسها قد كانت الحافز الأعظم على إتقان العرب المحدّثين للغتهم وارتوائهم من معينها. ولا عجب في ذلك، فإنَّ العلم يزيد بعضه بعضًا سنّة الله في خلقه.

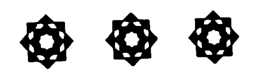
(١) أُدبل، بمعنى جُمِعَ وأُصْلِحَ.

الفقه الإسلامي وعلماء الدين

هذا ما كان من جهة الأدب العربي، وأمّا من جهة الفقه الإسلامي، فلا نقدر أن نقول إنَّه تقدّم إلى الأمام، بل رجع في الحقيقة إلى الوراء، وذلك باستغناء الناس عنه بعلم الحقوق منذ تَرْجَمَتِ الدولة العثمانية هذا العلم عن قوانين أوربة إلى التركية والعربية، ومن عادة الناس أن يكون أكثر انشغالهم بما ينفعهم في دنياهم، وليس كلّ العلم طراز مجالس. نحن أولاً قد أدركنا في أواخر القرن الماضي طبقة عالية من علماء العلوم الشرعية في دمشق مثل، محمود أفندي الحمزاوي، والشيخ سليم العطّار، والشيخ بكري العطّار، والشيخ سعيد الأسطواني، والشيخ الطنطاوي والشيخ علاء الدين عابدين، والشيخ محمَّد البيطار، وأخيه الشيخ عبد الرزّاق البيطار، والشيخ طاهر الجزائري، والشيخ عبد الغني الميداني، والشيخ محمَّد الخاني، والشيخ جمال الدين القاسمي، وغيرهم. وكان الناس يستفتونهم في النوازل ويعوّلون على آرائهم في الدين والدنيا، فلمّا انتشرت العلوم العصرية، ومنها القوانين الأوربية المترجمة التي عملت الدولة بها، صار إذا مات واحد من هؤلاء الفقهاء لا يخلفه غيره، وما زال الأمر كذلك إلى أن كادت هذه الطبقة تنقرض بالمرّة. وكذلك كان في بيروت الشيخ محيي الدين اليافي، والشيخ يوسف الأسير، والشيخ ابراهيم الأحدب؛ وفي طرابلس، الشيخ حسين الجسر، والشيخ محمود نشّابة؛ فمات كلّ هؤلاء ولم يخلفهم أحد، وصار النبوغ للمحامين الذين تخرَّجوا في المدارس الأوربية أو في مكاتب الدولة العثمانية، والمحامون بمصر أكثر منهم بالشام لِما في مصر من استبحار العمران.

إلاّ أنه نظرًا لوجود الأزهر ومدرسة «القضاء الشرعي» في مصر، بقي حَمَلَة العلوم الشرعية فيها أكثر منهم في سورية. وكان الواجب على هذه الأمّة في كلّ

قطر أن لا تهمل هذا العلم الذي هو من مفاخر الثقافة العربية ومن محاسن تاريخها، والذي لا يستغني عنه المسلمون في المعاملات الدنيوية، فضلاً عن المسائل الاعتقادية.



الطبّ والأطبّاء والصيدلة

وأمّا الطبّ، فهو من العلوم التي يقوم عليها المشارقة أكثر من غيرهم ويوفَّقون فيها. ومن الأطبّاء الشرقيين من يقيمون الآن في أوربا ويشتهرون بالنبوغ بين أهلها. وقد كانت الدولة العثمانية من الدول الراقية في علم الطبّ حتَّى كان يقال إنَّها في الدرجة الخامسة بالنسبة إلى الدول الأخرى، وقد نبغ فيها عدد كبير من الأطبّاء الجرّاحين يعدّون في الطبقات العليا بالنسبة إلى أطبّاء أوروبا وجرّاحيها أنفسهم، منهم أتراك، ومنهم عرب، ومنهم أروام، ومنهم أرمن، ولا نقدر أن نقول إنَّ سوريا متأخّرة في حلبة الطبّ هذه عن غيرها، بل إنِّي أتذكّر أنه لمَّا نشبت الحرب العامّة واحتاجت الدولة إلى أطبّاء لجيشها، ساقت إلى الجيش مئتي طبيب ذي شهادة من جبل لبنان وحده، وبقي عدد كبير منهم في البلاد. واليوم، قد ازداد هذا العدد على ما كان من قبل، وبلغني أنَّ في دمشق وحدها ١٥٠ طبيبًا، وإنَّا نرى خرِّيجي مدارس الطبّ من السوريين يتعاطون صنعتهم هذه في مصر والعراق والسودان والحجاز وغيرها. وما يُقال في الطبّ يُقال في الصيدلة التي لها ممثّلون كثيرون من أبناء سورية، وكذلك بدأ كثير من الشبّان يدرسون في أوربة علم الجراثيم "البكتريولوجية".

- منافسة سوريا للبلاد العربية

وما من علم يجدّ في أوربا إلاّ أقبل عليه الشرقيّون كما أقبل الغربيون وأخذوا منه بنصيب؛ فالمباراة إذًا جارية بكلّ ما يمكن من الهمّة، على أنَّ سوريا في علم الطبّ وتوابعه هي ذات المركز الأول في البلدان العربية، وذلك لسبقها غيرها إلى ورود حياض العلوم الكونية؛ فلا مصر، ولا العراق، ولا جزيرة العرب، ولا إيران

ولا المغرب، تضارع سوريا في هذا الموضوع. ولكن نحن على ثقة أنَّ جميع البلاد العربية من الآن إلى ثلاثين وأربعين سنة تصير متساوية بعضها إلى بعض في درجة الرقيّ العلمي.

ومن العلوم التي يمتاز بها العرب، ولا سيَّما السوريون منهم، العلوم العددية، وقد نبغ الكثيرون ممّن لا نقدر على إحصاء أسمائهم، نذكر منهم على سبيل التمثيل، الشيخ محمَّد الطيبي في دمشق، والمعلِّم بطرس البستاني والمعلِّم أسعد الشدودي في بيروت، وغيرهم.

ولمَّا كان السوريون من أقوى أمم الأرض على التجارة، كان علم الحساب من العلوم التي يتخصّصون بها بطبيعة الحال، وكذلك في مصر، لا يُنْكَر ترقّي العلوم الرياضية التي مصر من مراكز ازدهارها، بل نقدر أن نقول إنَّ المهندسين فيها أكثر منهم عددًا في سوريا نظرًا لأنَّ الزراعة في وادي النيل أرقى بكثير منها في سوريا.

بقي علينا أن ننظر كيف يكون اتجاه الأمّة العربية في المستقبل من جهة الثقافة! أتأخذ بالثقافة الغربية ولوازمها ومتمّماتها إلى النهاية، أم تبقى معتصمة بثقافتها الشرقية الأصلية، لا تبغي بها بدلاً ولا عنها حولاً، أم تأخذ من الثقافتين معًا وتجعل من ذلك ثقافة خاصّة لا شرقية ولا غربية؟! هذا سؤال يرد كثيرًا على خواطر الباحثين، وكلٌّ منهم يذهب في الجواب مذهبًا، وأظنّ أنَّ ثقافة العرب المستقبلة ستكون عصرية، آخذة من التجدّد بأوفى نصيب لكن مع الاحتفاظ التامّ بالطابع العربي. وهذه أشبه بما سبق للثقافة العربية في زمن بني العبَّاس وفي زمن بني أميّة بالأندلس، حينما نقل العرب حكمة اليونان إلى لغتهم واطّلعوا على علوم فارس والهند، فجعلوا من هذه الثقافات الثلاث، ومن الثقافة العربية الأصلية، ثقافة جديدة عالية كانت أرقى ثقافة في القرون الوسطى، لكنَّها كانت زاهرة بطابعها العربي الذي لم يكن يفارقها بحال من الأحوال. وهكذا، ستكون ثقافة العرب بعد اليوم، لن تكون جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدثين وجوب التعديل فيه

والإضافة إليه، ولن تكون منسلخة من القديم، جاحدة في التبرّؤ منه على النحو الذي نحاه الأتراك الكماليّون الغالبون على تركيا اليوم، ولكنَّها تكون ثقافة جامعة بين القديم والجديد مختارة من كلّ شيء أحسنه، مع بقاء الصبغة العربية التامّة غير المفارقة للعرب، وذلك على النحو الذي نحاه اليابانيون الذين اقتبسوا جميع علوم الأوربيين ولم يغب عنهم منها شيء، ولا فاتهم من صناعات أوربا دقيق ولا جليل، ولبثوا مع ذلك يابانيين أصلاء في لغتهم وأدبهم وطربهم وطعامهم وشرابهم وجميع مناحي حياتهم. وحَسَبَ العرب، قدوة للاقتداء، ومثالاً للاحتذاء، هذه الأمّة اليابانية العظيمة التي لا يوجد أشدّ منها رجوعًا إلى قديم، ولا أخذًا منها بحديث. والآمال معقودة بأنه ستكون في الشرق الأدنى نهضة عربية علميّة تضاهي النهضة العلميّة التي رأيناها في الشرق الأقصى.

ـ لماذا تأخّر الشرق الأدنى عن الأقصى

وإن كان الشرق الأدنى قد تأخّر عن الأقصى في درجة الرقيّ العصري، فلم يكن ذلك كما يتوهّم بعضهم من جمود الأمم الشرقية العربية وتفوّق اليابانيين عليهم في حبّ العلم ونشدان وسائل القوّة، وإنّما كان الموقع الجغرافي للبلاد العربية قد عرّضها، من هجوم الأجانب وغاراتهم المتوالية، إلى ما لم يتعرّض له اليابانيون بسب تقاصي ديارهم وبُعد مزارهم، بحيث خلا لهم الجوّ وتمكّنوا من أن يتعلّموا ويتهذّبوا آمنين على حوزتهم. وهذا فرق طالما غفل عنه الناس ولم يتفطّنوا لأهميّته، فحملوا، بسبب غفلتهم عنه، على الشريعة الإسلامية وجعلوها ظلمًا وعدوانًا هي المسؤولة عن هذا التأخّر، والمسؤول الحقيقي في الواقع هو الاعتداء الأجنبي المتواصل الذي يتيسّر في الشرق الأدنى ما لا يتيسّر في الشرق الأقصى.(انتهى)

۞ ۞ ۞

الصحافة في طرابلس الغرب

لمّا اطّلع أحد أدباء طرابلس الغرب على محاضرة الأمير، نَشر في جريدة «الجزيرة» الكلمة الآتية:

مولاي المحترم. قرأت في عدد ١٥ ـ ٧٠٥ من مجلّتكم الغرّاء جزءًا من المحاضرة التي ألقاها في قاعة المجمع العلمي الدمشقي أمير البيان عطوفة الأمير شكيب أرسلان بأَسم النهضة العربية العلميّة، فوجدت ما نصّه:

وأمّا في طرابلس الغرب فلم يكن أيام الدولة العثمانية غير جريدة "الولاية" الرسميّة، وفي الوقت الحاضر، توجد جريدة للحكومة في طرابلس وأخرى في بنغازي.

مع أنَّ الذي أعلمه يقينًا أنَّ بطرابلس في العهد العثماني عدّة جرائد كـ "الترقّي" و"المرصاد" و"الرقيب" و"العصر الجديد" و"أبو قشّة" (هزلية عربية) و"تعميم حريت" (هزلية تركية) ومُنشئها من طرابلس، ومجلَّة بأَسم مجلَّة "الفنون" (مصوَّرة).

وفي العهد الإيطالي بطرابلس، جريدة "العدل والرقيب العتيد"، وهي التي كان اسمها "الرقيب" في العهد العثماني و"الذكرى".

وأمّا في بنغازي، فقد صدرت منذ نحو سنتين مجلَّة مصوَّرة بأَسم "ليبيا المصوَّرة" زيادة على جريدة بأَسم "بريد برقة".

وممّا يجدر ذكره بهذه المناسبة أنَّ جريدة "الرقيب" التي سُمّيت في العهد الإيطالي بـ "الرقيب العتيد" كانت أرقى في العهد العثماني.

(طرابلسي مغربي)

جولة في مدارس اليمن

لمّا كان عطوفة الأمير شكيب قد تناول بحث المعارف في بلاد اليمن بصورة مجملة، ولمّا كان ناشر هذا الكتاب ومنشئ «الجزيرة» قد قام برحلة إلى تلك البلاد وطاف في مدارس صنعاء، فقد رأينا إتمامًا للبحث أن نضيف إلى محاضرة الأمير ما نشره منشئ «الجزيرة» عن جولته في مدارس اليمن:

إنَّ الذين يقولون بأنَّ المدارس مفقودة في بلاد اليمن يهرفون بما لا يعرفون، إذ يبلغ عدد المدارس في تلك الجهات نحو مئتي مدرسة بين مدارس صغيرة وكتاتيب، وكلّها مرتبطة رأسًا بالحكومة، وبعضها مؤلّف من ثلاثة صفوف وبعضها من أربعة.

نعم، إنَّ هذه المدارس لم تبلغ مستوى المدارس الحديثة في هذه البلاد بسبب فقدان الأساتذة الأكفّاء، ولكنَّ حركة بسيطة تقوم بها حكومة جلالة الإمام لا بدّ من أن تؤدّي إلى تكوين نهضة ثقافية واسعة النطاق.

وفوق ذلك، فإنَّ في صنعاء عدّة مدارس كبرى أذكر منها المدرسة الحربية، ودار المعلِّمين، ومدرسة الأيتام، والمدرسة الزراعية، ومدارس الصناعة، ومدرسة الإصلاح، والكلّية العلميّة.

والطلاّب في جميع مدارس اليمن لا ينفقون على الدراسة، بل إنَّ أكثرهم يأكل وينام ويلبس على حساب الحكومة، وهذه مأثرة خالدة بسجّلها لجلالة الإمام.

وقد التمستُ من سموّ وزير المعارف أن يسمح لي بزيارة مدارس صنعاء، فأذن لي بذلك ورافقني بالشيخ يحيى النهاري، وكيل مديرية المعارف، وهو شاب يماني ذكي ونشيط.

ـ مدرسة الأيتام

وقد بدأنا أولاً بزيارة مدرسة «الأيتام» التي تعتبر من أرقى مدارس اليمن، وهي مؤلّفة من سبعة صفوف، ستّة منها ابتدائية وواحد ثانوي، وجلالة الإمام ينفق على هذه المدرسة من جيبه الخاص. ويدخل في باب النفقات الطعام واللباس والنوم وغير ذلك. ويبلغ عدد طلاّبها ٣٠٠ طالب، أكثرهم من الأيتام.

وقد استقبلنا مديرها الشيخ محمَّد تقي وأخذ يطوف بنا على غرف التدريس. وقد فحصتُ بعض الطلاّب وألقيت عليهم عدّة أسئلة في التجويد والعلوم الدينية والحساب والجغرافية والتاريخ والقواعد العربية، فوجدتهم، رغم رداءة طرق التدريس المتّبعة عندهم، على جانب عظيم من الذكاء وحسن الاستعداد لتلقّف أنواع العلوم.

بيد أنني أرى من واجبي، إرضاءً لضميري، وتنبيهًا لحكومة جلالة الإمام، أن أدوّن في ما يلي الملحوظات الآتية:

١ـ إنَّ الطلاّب يحفظون دروسهم عن ظهر قلب دون أن يتدبّروا معاني ما يحفظون.

٢ـ بعض التلاميذ كانوا يجلسون على الأرض لعدم وجود مقاعد كافية.

٣ـ يظهر أنَّ العهد التركي ترك في المدارس بعض الاصطلاحات غير العربية. وقد رأيتها متداولة ومستعملة في المدرسة نحو: يوقلمة (تفقّد)، نوبتجي (مناوب)، فايدوس (فرصة). وقد نبّهتُ مدير المدرسة إلى الكلمات العربية التي تقابل تلك المصطلحات الأعجمية، فوعد باستعمالها.

٤ـ لعلّ من أغرب ما شهدت في هذه المدرسة أنَّ بعض التلاميذ كانوا مقيّدين بالسلاسل من أرجلهم، ولمّا استفسرت عن ذلك قيل إنَّهم يفرّون كثيرًا، فلم يجدوا وسيلة لمنعهم من الفرار إلاّ عن طريق الأغلال!

٥ - الطلاّب كلّهم يرتدون الألبسة العربية اليمانية، وهذا أمر لا نعترض عليه، ولكن لاحظت أنَّ الطلاّب عند أداء بعض التمارين الرياضية، ولا سيَّما عند استعمال المتوازيين والحلقات وغيرها، يجدون صعوبة ومشقّة؛ فحبّذا لو يُعدّ لهم لباس خاص مؤلّف من سروال وقميص خصّيصًا للألعاب الرياضية.

ومّما أدهشني وأثلج صدري أنَّ التلاميذ استقبلوني بالأناشيد الوطنية المعروفة في بلادنا، ولا سيَّما نشيد صليل الظبي وصرير القلم... إلخ. وقد شعرت بقوّة حناجرهم وعذوبة أصواتهم مع عدم انطباقها على القواعد الموسيقيّة الحديثة.

والخلاصة، فإنَّ هذه المدرسة - رغم النقائص الموجودة فيها والمرجو تداركها حالاً - تعتبر من أعظم المؤسّسات التعليميّة في بلاد اليمن.

- مدرسة الصنائع

ثمَّ توجّهنا بعد ذلك إلى مدرسة "الصنائع" وزرنا بعض فروعها وأقسامها، ولا سيَّما معامل النسيج والصابون والسجّاد. ويتولّى إدارة شؤون هذه المدرسة شابّ مصري منتدَب من قبل الحكومة المصرية اسمه عبد القادر علاّم، وقد أطلعني على خلاصة الأعمال التي قام بها والخطوات التي خطتها هذه المؤسّسة الصناعية في مدّة لا تزيد عن ثلاثة أشهر. ثمَّ أراني الآلات والمكنات التي أُحضرت حديثًا، وأكّد لي أنه لو وَجَّهت الحكومة العناية الكافية إلى تقاريره، لاستطاع أن يؤمّن عن طريق صنائع الطلاّب فقط جميع حاجات اليمن من المنسوجات.

ثمَّ زرنا معمل الصابون، وكان ينتج في اليوم الواحد ما لا يقلّ عن أربعة آلاف قطعة صابون. ويدير أعمال هذا المعمل رجل فلسطيني أصله من عكّا. وقد سألت عن الزيت الذي يُصنع منه هذا الصابون، فقيل لي إنَّه يُستخرج من نبات غريب يظهر في اليمن ويشبه الخروع في تأثيره.

ثمَّ زرنا بعد ذلك معمل السجّاد، وأُعجبتُ بمصنوعات الطلاّب من السجّاد النفيس والأبسطة الجميلة.

ـ المدرسة العلميّة الكبرى

والمدرسة العلميّة تعتبر أرقى المعاهد العلميّة في اليمن، وهي تؤهّل طلاّبها وخرّيجيها بعد نوال الإجازة:

١ـ لتولّي أعمال القضاء

٢ـ القيام بشؤون التدريس في مدارس الحكومة

٣ـ الاندماج في وظائف الحكومة الكبرى. وعلمتُ أنَّ أكثر العمّال في الأقضية والنواحي متخرّجون من هذه المدرسة. والطلاّب فيها يأكلون وينامون ويلبسون على حساب الحكومة. وقد زرتُ غرف نومهم وقاعات التدريس والمطبخ الذي يعدّ الطعام، فألفيتها كلّها على أتمّ ما يكون بالنسبة لهذه البلاد.

وهذه المدرسة تدرِّس مختلف العلوم الدينية والعربية، فهي تعتبر كالأزهر في مصر ويبلغ عدد طلاّبها المائتين، وقد اختبرتُ بعضهم، فوجدتهم متفهّمين تمامًا لِما يُلقى عليهم من الدروس، ومتبحّرين في الشؤون الدينية.

أمّا الدروس التي يتلقّونها في هذه المدرسة، فهي القرآن الحكيم، أصول الفقه، مصطلح الحديث، الحديث، علم الفرائض، تفسير القرآن، التصوّف (ويسمّونه علم الباطن)، النحو والصرف، التوحيد، المعاني والبيان، المنطق، الإنشاء، المحفوظات، الأدب العربي، التاريخ الإسلامي، تاريخ الأئمّة، تاريخ اليمن، الحساب، علم الأوقات والفلك.

والكتب التي يعتمد عليها في التدريس أكثرها من وضع علماء الزيدية،

وبعضها مطبوع والبعض الآخر مخطوط؛ وهذه أهمّ الكتب التي يدرسها الطلاّب في هذه المدرسة:

التجويد (شرح الجزري)، مفتاح الفائض في علم الفرائض، متن الأزهار في فقه الأئمّة الأطهار مع الشرح، ألفية ابن مالك وشرحها لاَبن عقيل، متن الأساس في علم الكلام، تفسير الزمخشري، متن الغاية في أصول الفقه، متن التلخيص، ملحة الإعراب.

ويبلغ عدد الأساتذة في هذه المدرسة ١٥ أستاذًا، أذكر منهم حضرات: الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي (مدير المدرسة)، السيِّد أحمد بن علي الكحلاني (رئيس المدرّسين)، السيِّد حسين بن محمَّد الكبسي، السيِّد أحمد بن عبد الله الكبسي، الشيخ الجمالي علي بن محمَّد فضّة، الشيخ حسين بن يحيى الواسعي، السيِّد عبد العزيز بن علي بن ابراهيم، السيِّد علي بن محمَّد الشهيد، الشيخ محمَّد بن علي الشرفي، الشيخ علي بن هلال التبب، الحاج لطفي الفسيل، السيِّد عبد القادر بن عبد الله، الفقيه محمَّد مداعس، القاضي يحيى الآنسي.

وحُفَّاظ القرآن السيِّد علي الطائفي، والفقيه حسين الغيثي، والفقيه علي الحيمي.

ملحوظة: ألقاب العلماء في اليمن، **القاضي** لمن تولّى القضاء أو كان والده قاضيًا، و**السيِّد** لمن ينتسب لسيّدنا علي، و**الفقيه** و**الشيخ** لسائر العلماء.



شهادة لها قيمتها*

بقلم أمير البيان

«الحبشة المسلمة ـ الحلقة الأولى من مشاهداتي في ديار الإسلام ـ بيانات وافية عن الأحباش المسلمين وأحوالهم الدينية والاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم».

الكتاب من تأليف محمَّد تيسير ظبيان الكيلاني

«نهض أخيرًا الوطني الفاضل الكاتب البارع السيِّد تيسير ظبيان الكيلاني الدمشقي، فقصد إلى بلاد الحبشة بنفسه، وجول فيها وشافه المفكِّرين والعلماء ومختلف الطبقات من مسلميها، فعرف عن أحوالهم ما يطابق ما نعلمه نحن من الكتب المؤلّفة والمكاتيب الخصوصية. وقد أودع معلوماته هذه كتابه هذا الذي طبعنا فيه كلمتنا هذه، وخير ما نوصي به بشأن هذا الكتاب هو حثّ الناس على قراءته، إذ بذلك يأخذون صورة صحيحة عن الإسلام في الحبشة ويثنون على مؤلّفه خير الثناء بما نصح للإسلام وأهله وخدم العروبة وأبناءها».

شكيب أرسلان

(١) شهادة أعطاها الأمير شكيب أرسلان في كتاب «الحبشة المسلمة ـ الحلقة الأولى من مشاهداتي في ديار الإسلام ـ بيانات وافية عن الأحباش المسلمين وأحوالهم الدينية والاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم» وقد وضعناها هاهنا للدلالة على الأهمّية التي يكتسيها قلم الأمير شكيب أرسلان، بالنسبة إلى التأليف أو التاريخ؛ فكان رأيه السديد يفنّد القضايا والأمور لتكون مرآة يرمي المرء نفسه فيها.على مقدار ما تحمل من معطيات ومآخذ في آنٍ معًا.

فهرست المحتويات



١٨٦٩_ ١٩٤٦

لا حاجة بنا إلى القول بأنَّ أجلى مجالي هذه النهضة كان في العلم والتعليم. وعندي، أنه لا نهضة للأمم سوى النهضة العلميّة، فإذا وجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية... إلخ، آخذًا بعضها برقاب بعض. فإذا قلنا إنَّ الشرق الأدنى نهض نهضة علميّة، كفينا تعداد سائر مظاهر نهوضه ومعارج رقيّه؛ لأنَّ العلم وحده هو المفتاح وبه وحده الدخول إلى داخل البناء، وكلّ نهضة لا يكون ظهرها العلم، فما هي إلاّ ساعة وتضمحلّ. وقد يقال إنَّ نهضة شرقنا هذه ضئيلة لا تستحقّ أن تُذكر بالقياس إلى معالي الأمم الراقية، وإنّنا لا نبرح متخلّفين بمساوف شاسعة عن أمد أوربا وأميركا واليابان، فلماذا نشغل أنفسنا بما لا يشغل حيّزًا في التاريخ العام؟ وعلى هذا نجاوب أنه ليس العلم متعلّقًا بالكمال وحده، ولا البحث موقوفًا دائمًا على ما بهر النهى وبلغ سدرة المنتهى، وإنّما العلم هو ما تناول الدرجات كلّها، الدنيا منها والقصوى، والبحث هو الذي به توزن مقادير الأشياء وتحدّد نسبة بعضها إلى بعض ونسبتها إلى الوقت. ثمّ إنّنا إذا تحرّينا الحقيقة، وجدنا الشرق العربي قد اجتاز في هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة ما لم يتهيّأ لأوروبا أن تجتازه قبلاً في أطول جدًّا من هذا الردح من الدهر. وذلك أنه من الطبيعي أن يسهل على المتأخّر ما لا يسهل على المتقدّم؛ لأنَّ المتقدّم قد يُضطرُّ أن يمهّد الطريق ويسير، وأمّا المتأخّر فما عليه إلاّ أن يلحقه ويسير على طريق مذلّل أمامه.

شكيب أرسلان